برناردين كليتي

فتح القسطنطينية

ترجمة

شكري محمود نديم

مراجعة

الدكتور جعفر خصباك

فتح القسطنطينية

نشر بالمشاركة
مـع
مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر
بغـداد ــ نيويورك
١٩٦٢

فتح القسطنطينية

تأليف

برناردين كلتي

ترجمة

شكري محمود نديم

مراجعة

الدكتور جعفر خصباك

الناشر

مكتبة النهضة

بغداد - ١٩٦٢

دار التضامن للتجارة والطباعة والنشر - بغداد

This is an authorized translation
of

THE FALL OF CONSTANTINOPLE
by

BERNARDINE KIELTY

Published by Random House, Inc. New York

مُحتَوَيَاتُ الكِتَابْ

الصفحة

المسهمون

المؤلفة : برناردين كايلتي

ولدت برناردين كايلتي ونشأت في ولاية ماساشوسيتس ، وهي متزوجة وأم لطفلين وتقيم الآن في نيويورك • عملت محررة في مجلة (ستوري Story) مدة سبع سنوات ، وحررت في باب القصة لمجلة (ليديز هوم جورنال Ladies Home Journal)،ونشرت مجموعة من القصص القصيرة عن عادات المجتمع الامريكي والطابع التاريخي للقصة القصيرة • وتشتغل الآن في عرض الكتب وتقديمها للقراء في مجلة (ليديز هوم) وفي كتاب (الشهر) ولها عدة قصص قصيرة وبحوث عن رحلاتها وهي مشغوفة بالموسيقى •

المترجم : شكرى محمود نديم

ولد في الموصل سنة ١٩١٩ وتخرج في الكلية العسكرية ببغداد بتفوق سنة ١٩٣٨ ، وفي الاكاديمية العسكرية البريطانية سنة ١٩٤٠ متخصصا بالمخابرة • وفي كلية الاركان العراقية بامتياز سنة ١٩٤٥ ، وفي كلية الاركان في كامبرلي سنة ١٩٤٩ • وعمل استاذا في كلية الاركان بضع سنوات واحيل على التقاعد سنة ١٩٥٨ برتبة زعيم ركن بعد أن شغل مناصب هامة في الجيش العراقي • وانصرف الى الكتابة والترجمة يساعده على ذلك اتقانه عددا من اللغات وقد سبق له نشر عدة أبحاث عسكرية ، وله مؤلفان في

تاريخ الحرب هما (حرب افريقيـا الشمالية ١٩٤٠-١٩٤٣) و (حرب العراق ١٩١٤-١٩١٨) وترجم كتاب (سليمان القانوني) لهارولد لامب •

المراجع : الدكتور جعفر حسين خصباك

من مواليد مدينة الحلة • تخرج في دار المعلمين العاليـة ببغداد عام **١٩٤٦** بدرجة شرف ثم حصل على شـهادة الماجستير في التاريخ من جامعة كاليفورنيا وعلى شهادة الدكتوراه في التاريخ من جامعة شيكاغو عام **١٩٥٢** • اشتغل بالتدريس في كلية الآداب ، وهو الآن استاذ مساعد فيها • له عدة مؤلفـات وبحوث منهـا : روسيا السـوفيتية والشـرق الاوسط ، وانكلترا والحركة القومية في مصر ، والعراق في عهـد الايلخانيين المغول • أسهم في ترجمة كتـاب « القوميـة : اسـطورة وواقع » لبويدك شيفر ، وترجم كتاب الحروب الصليبية لهارولد لامب الذي سيظهر قريبا •

كلمة المترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

حوادث فتح القسطنطينية تستهوي كل قاريء مسلم ، لانها تروي قصة فتح اسلامي عظيم بذلت الجيوش الاسلامية في سبيل تحقيقه جهودا جبارة طيلة ثمانية قرون ، فلقد قاد معاوية بن أبي سفيان الحملة الاولى على القسطنطينية سنة ٣٢هـ (٦٥٠م) في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه ؛ ولكنه لم يستطع فتحها ، ثم تلى ذلك عدة حملات كان أعنفها جميعا حصار القسطنطينية في خلافة معاوية نفسه – حين أصبح خليفة – مدة أربع سنوات دون طائل ، وآخرها حصارها في عهد الخليفة هارون الرشيد ... ذلك الحصار الذي انتهى بموافقة الامبراطور نقفور « نيكفوروس » على دفع الجزية .. أما أسباب فشل الفتح في كل من تلكم الحملات فترجع الى أمور سياسية وعسكرية لا مجال لذكرها في هذا المقام .

وظلت القسطنطينية منيعة صامدة حيال الهجمات الاسلامية المتكررة حتى أذن الله بفتحها على يد السلطان العثماني « محمد الفاتح » عام **٨٥٧هـ** (١٤٥٣م) بعد حصار دام ثلاثة وخمسين يوما .

ويرى زائر مسجد (آيا صوفيا) في استانبول اليوم العبارة الآتية منقوشة على القاشاني وهي حديث مروي للرسول الكريم • « لتفتحن القسطنطينية ، ولنعم الامير أميرها ولنعم الجيش جيشها » •

والقسطنطينية حاضرة الامبراطورية البيزنطية ، احدى العقبتين[*] العظيمتين في طريق نشر الدعوة الاسلامية التي بشر بها الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم تينك العقبتين اللتين رفضتا الدخول في الاسلام ووقفتا حائلا دون انتشاره في أقطار الارض التي كانتا تسيطران عليها ، ولذلك كان يتحتم على المسلمين ازالة هذه العقبة بعد أن تم لهم القضاء على الامبراطورية الفارسية •

ولعل مما يلقي ضوءا على أهمية فتح القسطنطينية بالنسبة الى العالم الاسلامي أن نورد هنا مقتبسات من رسالتين كتبهما السلطان (محمد الفاتح) الى عزيز مصر « اينال شاه » والى شريف مكة •

فقد جاء في رسالته الى عزيز مصر ما يأتي :

(ان من أحسن سنن أسلافنا أنهم مجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم • ونحن على تلك السنة قائمون وعلى تلك الامنية دائمون متمثلون بقوله تعالى :

« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله » ومتمسكين بقوله عليه السلام « من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار » • فهممنا هذا العام ، عممه الله بالبركة والانعام ، معتصمين بحبل ذي الجلال والاكرام ، ومتمسكين بفضل الملك العلام ، الى أداء فرض الغزاء[1] في الاسلام مؤتمرين بأمره تعالى « قاتلوا الذين يلونكم من الكفار » • وجهزنا عساكر الغزاة والمجاهدين من البر والبحر ، لفتح مدينة ملئت فجورا وكفرا • والتي

(*) العقبة الثانية هي الامبراطورية الفارسية •
(١) الصواب : الغزو •

بقيت في وسط الممالك الاسلامية تباهي بكفرها فخرا ٠

فكأنها حصف على الخد الاغر وكأنهـا كلف على وجه القمر

وهي محصنة صعبة المرام شامخة الاركان راسخة البنيان ، مملوءة من المشتركين الشجعان ، خذلهم الله أينما كانوا ، وهم مستكبرون على أهل الايمان ، متناصرون بالجزائر الغربيـة مثل رودس وقطلان وونديك[٢] وجنويز[٣] وغيرهم من أهـل الشرك والطغيـان ، وحصن محصن مسدد مشـيد منسق النظـام ، ما ظفروا[٤] به أسـلافنا العظام ، هؤلاء الاساطين الفخام ، مع أنهم جاهدوا حق الجهاد ولم ينالوا بها نيلا ٠ وهي قلعة عظيمة مشتهرة فى ألسنة أهل الارض باسم القسطنطينية ٠ ولا يبعد أن تكون هي التي نطق بها صحاح الاحاديث النبوية والاخبار المصطفوية ، عليه وعلى آله أتم الصلاة والتحية « فيفتحون قسطنطينية ٠ فبينما هم يقتسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون ـ » الحديث ٠٠٠ وغير هذا من الصحاح المشهورة ، هي هذه المدينة الواقع جانب منها في البحر وجانب منها في البر ٠٠٠) ٠

وبعـد وصف المدينـة ووصف الاسـتعدادات الحربيـة ، استمرت الرسـالة : (٠٠٠ حاربناهم وحاربونا ، وقاتلناهم وقاتلونا ، وجرى بيننـا وبينهم القتال أربعة وخمسين يوما وليلة ٠٠٠ ومتى طلع الصبح الصادق من يوم الثلاثاء يوم العشـرين من جمادى الاولى هجمنـا مثال النجوم رجوما لجنود الشياطين سخرها الحكم الصديقي ، ببركة العدل الفاروقي ، بالضرب الحيدري لآل عثمان ، قد منّ الله تعالى بالفتح قبل أن ظهرت الشمس من مشرقهـا ٠

---

(٢) البندقية ٠

(٣) جنوة ٠

(٤) الصواب : ما ظفر ٠

وفي الرسالة التي كتبها السلطان (محمد الفاتح) الى شريف مكة المكرمة بمناسبة فتح القسطنطينية ورد ما يأتي :

(... مطلع لوازم العز والتمكين ، مظهر مآثر الملك والدين ، فلذة أكباد الرسول ، زبدة أحفاد البتول ، أمير المسلمين وولي المؤمنين ، خلاصة أولاد شفيع المذنبين ، وهو السيد الشريف ..... فقد أرسلنا هذا الكتاب مبشرا لما رزق الله لنا في هذه السنة من الفتوح التي لا عين رأت ولا أذن سمعت ، وهي تسخير البلدة المشهورة بقسطنطينية ... فالمأمول من مقر عزتكم الشريفة أن يبشش بقدوم هذه المسرة العظمى ، والموهبة الكبرى مع سكان الحرمين الشريفين ، والعلماء و السادات المهتدين ، والزهاد ، والعباد والصالحين ، والمشايخ والامجاد الواصلين ، والائمة الاخيار المتقين ، والصغار والكبار أجمعين ، المتمسكين بأذيال سرادقات بيت الله الحرام ، التي كعروة الوثقى لا انفصام ، والمشرفين بزمزم والمقام ، والمعتكفين في قرب جوار رسول الله عليه التحية والسلام داعين لدوام دولتنا في العرفات ، متضرعين من الله نصرتنا ، أفاض الله علينا بركاتهم ورفع درجاتهم ... وبعثنا مع المشار اليه هدية لكم خاصة ألفي فلوري[١] من الذهب الخالص التام الوزن والعيار والمأخوذ من تلك الغنيمة . وسبعة آلاف فلوري آخر للفقراء ، منها ألفان للسادات والنقباء ، وألف للخدام المخصوصة للحرمين ، والباقي للمتمكنين[٢] المحتاجين في المكة[٣] المعظمة والمدينة المنورة ، زادهما الله شرفا . فالمرجو منكم التقسيم بينهم بمقتضى احتياجهم وفقرهم ، واشعار كيفية السير الينا ، وتحصيل الدعاء منهم لنا ، دائما باللطف والاحسان ان شاء الله تعالى . والله يحفظكم ويبقيكم بالسعادة الابدية والسيادة السرمدية الى يوم الدين ...) .

---

(١) عملة مستعملة في أوربا والدولة العثمانية .
(٢) ربما كانت للمعتكفين .
(٣) الصواب : في مكة .

وقد أجاب شريف مكة المكرمة عن رسالة السلطان (محمد الفاتح) هذه برسالة جاء فيها بعد ذكر وصول الرسول والرسالة :

(... وفتحناها بكمال الادب ، وقرأناها مقابل الكعبة المعظمة بين أهل الحجاز وأبناء العرب . فرأينا فيها من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين وشاهدنا من فحاويها ظهور معجزة رسول الله خاتم النبيين وما هي الا فتح القسطنطينية العظمى وتوابعها التي متانة حصنها مشهورة بين الانام ، وحصانة سورها معروفة عند الخواص والعوام . وحمدنا الله بتيسير ذلك الامر العسير، وتحصيل ذلك المهم الخطير ...)[١] .

لقد دفع هذا الصراع الطويل بين المسلمين والبيزنطيين حول القسطنطينية السيدة (برناردين كايلتي) الى أن تسجل قصة فتحها باسلوب واضح طلي متجنبة ذكر التفاصيل التي لا يهم ذكرها غير المتخصصين ، وحسنا فعلت . على أن القارىء يستشفُّ مما بين السطور حرقة الكاتبة لضياع القسطنطينية وتمجيدها المدافعين عنها ، ولها في ذلك العذر كله ، لان سقوط القسطنطينية نكبة كبرى بالنسبة الى المسيحيين ... فاسم هذا الكتاب بالانكليزية (سقوط القسطنطينية The Fall of Constantinople لانه في رأي الكاتبة قصة ضياع ، ولكننا وسمناه بـ (فتح القسطنطينية) ؛ لانه يمثل قصة ظفر بالنسبة الينا نحن المسلمين .

وهناك ناحية لابد من التطرق اليها بشيء من الايجاز بعد أن أغفلها الكتاب ؛ ألا وهي سيرة السلطان محمد الفاتح ، ومحمد الفاتح هذا هو ابن السلطان مراد الثاني وسابع السلاطين العثمانيين ، اعتلى العرش وهو ابن أربع عشرة سنة بعد أن اعتزل والده السلطنة ، الا أنه اضطر الى العودة الى الحكم لمساعدة ولده الصغير عند تأزم الوضع نتيجة هجوم ملك المجر .

---

(١) الحصري : ساطع ـ « البلاد العربية والدولة العثمانية » ص ٢٠ عن منشآت فريدون بك .

وبعد هزيمة المجر في معركة وارنه ٨٥٢هـ (١٤٤٨م) استمر في الحكم حتى وفاته سنة ٨٥٥هـ (١٤٥١م) حيث اعتلى السلطان محمد العرش مجددا باسم « محمد الثاني » ... امتاز السلطان محمد بثقافته الواسعة ، فقد كان مولعا بدراسة التاريخ ومحبا للرياضيات والفلسفة والجغرافية ، ومتقنا لغات متعددة كالعربية ، والفارسية ، واليونانية ، واللاتينية . وقد عقد العزم على فتح القسطنطينية التي كانت شوكة في حلق الدولة العثمانية ، وأتاحت له اعتداءات البيزنطيين على بعض القرى التركية والرعايا الاتراك وطيش الامبراطور قسطنطين فرصة قطع العلاقات والتهيؤ للحرب .

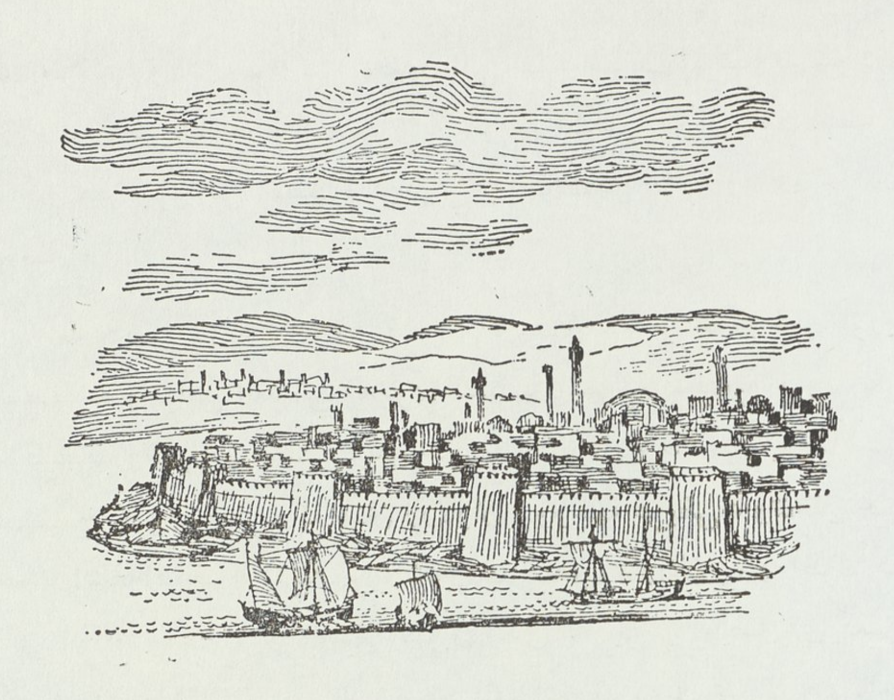
ويمكن وضع السلطان محمد الفاتح في صف أعظم القادة العسكريين في التاريخ من أمثال هانيبال والاسكندر الكبير وخالد بن الوليد ونابوليون وغيرهم ، فقد كانت تدابيره لانجاز هذه المهمة الصعبة كاملة ودقيقة ، وخطته ومراحل تنفيذها رائعة ومحكمة . لقد أوفد قوات كبيرة بقيادة (طورخان بيك) لمهاجمة المورة ومشاغلة اليونانيين برا لمنعهم من مساعدة القسطنطينية ، وأحكم تدابير الحصار ببناء قلعة (روم ايلي حصار) التي سدت طريق البحر الاسود ، وأدرك بثاقب نظره خطأ أسلافه الرئيس وهو مهاجمة القسطنطينية من اتجاه واحد ، فقرر الهجوم عليها من كل الجهات برا وبحرا لارباك المدافعين وتشتيت قواهم . وأخيرا فان التاريخ العسكري يخلد مناورته بسحب السفن برا وانزالها في خليج القرن الذهبي في ليلة واحدة كمناورة سوقية من الطراز الاول . وكانت دعوته الامبراطور الى التسليم وحقن الدماء قبيل هجومه النهائي وبعد أن أصبحت المدينة في حكم المقضي عليها ، مثلا ساميا للخلق الاسلامي النبيل .

وبعد أن ضم الفاتح القسطنطينية الى دار الاسلام وأصبحت (اسلام بول) العاصمة استمر يجاهد الاعداء في أوربا والاناضول وسواحل البحر الاسود ، وقد وسع الدولة العثمانية الى ضعف ما كانت عليه عند اعتلائه عرش السلطنة . وامتاز بحسن ادارته وتنظيمه لشؤون الملك على

أسس ملائمة عملية ، ووضع قواعد للحكم سار على هديها خلفاؤه ، وأحسن معاملة رعيته على اختلاف أديانهم • وكان ورعا متعصبا لدينه ، وانصرف طوال مدة حكمه التي بلغت ثلاثين سنة الى الفتوح والعمل الصالح النافع ، وتوفي سنة ٨٨٦هـ (١٤٨١م) وخلفه ولده السلطان بايزيد الثاني •

أما حماس المؤلفة الظاهر في تقدير شهامة الامبراطور قسطنطين وشجاعة المدافعين عن القسطنطينية وتضحيتهم فاننا نرى أن هذه الشهامة والشجاعة واجبة التقدير ، فالجود بالنفس أقصى غاية الجود ، الا اننا لابد من أن نذكّر القارىء الكريم في الوقت نفسه بأن ينظر الى الموضوع من وجهة نظر المهاجمين ، فان الهجوم كما تقضي سنن الحرب يتطلب من الشجاعة والتضحية أكثر بكثير مما يتطلبه الدفاع ، فحزم الفاتح وعزمه أكسبا الاسلام فتحا عظيما في تاريخه العسكري ، والابطال من المحاربين المسلمين الذين كان يقودهم بذلوا دماءهم في قهر أقوى تحصينات عرفها زمانهم وفل أصلب مقاومة أبداها محاصرون يائسون ، فقد كان محمد الفاتح وجيشه مندفعين لان يكونوا كما قال رسول الله (صلعم) نعم الجيش بقيادة نعم الامير ، ولابد للمؤرخ المنصف من أن يقول انهم كانوا كذلك •

بغداد ٢١ آب ١٩٦٢ **شكري محمود نديم**



١

مجد بيزنطية الآفل

وقف الامبراطور قرب نافذة طويلة ضيقة فى قصره تشرف على أعالي الدور • وكان ذلك قصر «بلاشيرناي» القائم على رابية في الزاوية الشمالية الغربية من القسطنطينية ، المدينة اليونانية القديمة • وكان ذلك في اليوم السادس والعشرين من آذار عام ١٤٥٢ •

وخلف الامبراطور امتدت غرفة كبيرة تعكس أبعادها وسعتها وضخامة أثاثها روعة الملك ، الا ان ما فيها من سجاد لم يستر جدرانها الحجرية تماما • وكان العرش فوق منصة وقد طرّز اعلاه بتاج من ذهب، الا ان وسائد القطيفة

كانت مبزّلة ، وكانت عوارض الخشب التي تسند السقف المرتفع قد سوّدتها النار . أما أرض الغرفة فكانت مفروشة بالرخام المتكسر بشكل يلفت النظر . لقد كان هذا جزءاً من القصر ، شهد في أيامه مناظر غريبة وعرف حوادث مفجعة .

أما الامبراطور فكان قسطنطين الحادي عشر حاكم امبراطورية القسطنطينية والرأس العلماني الدنيوي للكنيسة الشرقية المسيحية . ولم يكن هذا قسطنطين الكبير بل خليفته الذى جاء بعد ألف عام . فقد كان يونانيا اسمه « قسطنطين باليو لوغوس » له عينان زرقاوان ، ووجهه عريض ، وتتخلل لحيته الجعدة الشقراء خيوط قليلة من الشعيرات البيض ، وكان يبدو أطول مما هو في الواقع بسبب الرداء الضيق الطويل الذى كان يرتديه ويصل الى كعبيه، وكان قرمزيا ملكيا يلائم منزلته ، وعلى كتفيه شريط ذهبي عريض ينزل مع مقدم الرداء فيضفي عليه صلابة وأناقة بسيطة . وعلى رأسه كانت القبعة الامبراطورية بقسمها الامامي المرتفع وهي تسطع بما عليها من مجوهرات . الا ان قطيفة ردائه كانت كالغرفة التي خلفه ذابلة خابية البهاء ، أما القبعة الامبراطورية فكانت احدى مجوهراتها ناقصة .

وامتد بصر الامبراطور يلف مدينته كلها دون أن يعيقه عائق ، فتحت الرابية التي يقوم عليها قصره من الناحية الشرقية يقع المرفأ الضيق المسمى بالقرن الذهبي . وكانت شمس الغروب الساطعة خلفه تنير أشرعة السفن المثلثة التى تستدير حول الرأس وتلمس بشعلتها تموجات الماء . وعبر الممر المائي الضيق للقرن الذهبي تقع تلول غلاطة وهي مدينة بيوتها ذات سقوف مسطحة وبها برج مرتفع منفرد ، تجري وراءها مياه البسفور سريعة ، والى الجنوب والغرب باتجاه الشمس الغاربة امتد بحر مرمرة المزركش بالجزر التي تكسوها أشجار السرو ، والى ما وراء مرمرة بعيدا عن نظر الامبراطور امتدّ البحران العظيمان اللذان يقترن اسمهما بالعالم الغربي وهما الايجي والمتوسط .



خارطة حديثة تبين موقع القسطنطينية (اسطنبول)

وكانت القسطنطينية تبدو لمن كان لا يعرف خفايا الامور كأنها تتنفس ببطء ويسر ورغد ، فالقباب العظيمة التي تغطي كنائسها تبدو وقورة خالدة في شمس الاصيل وبخاصة « سانتا صوفيا » وهي كبراها جميعا ، وأجمل كنيسة فى العالم المسيحي • وكانت السفن الراسية في الميناء والمتأرجحة بتأثير الرياح تنم عن تجارة رائجة في الغلال والتوابل والفواكه المستوردة من مختلف البلدان • وبدت في هذه اللحظة قافلة من الجمال وهي تنوء بأحمالها وتصعد تلا خلف « غلاطة » على الساحل المقابل • وكانت القافلة تتحرك بأسرع ما تقدر عليه الجمال ليستطيع سائقوها دخول أبواب المدينة قبل اغلاقها عند ما يحين الظلام ، وبذا يستطيعون الاستراحة في أحد خاناتها الكثيرة • وكانت القسطنطينية بنفاسة أطعمتها وخمورها وسكانها تبدو ملاذا يسوده المرح والسرور بالنسبة الى هؤلاء التجار وسائقي الجمال الذين عانوا أسابيع عديدة من السفر فى السهل والجبل •

الا ان قسطنطين كان يعروه الهم وهو يسرح نظره فى هذا المنظر المألوف • ولم يكن الاستياء سبب هذا الانقباض والقلق اذ لم تكن الامور كلها مطمئنة في مدينته الحبيبة ، فقد كان تهديد العدو يزداد شدة على مر الزمن ، ولم تكن الكنيسة نفسها آمنة كما كان يوحي منظر قبتها العظيمة الواسعة • لقد كان الامبراطور ينتظر زائرا يحمل رسالة قد تطمئن مخاوفه لفترة في الاقل أو قد تنطوي على تهديد يزيد على ما كان لا يجرؤ على التفكير فيه •

وانتقل بحزن من العالم الخارجي الذى كان متلفعا بأشعة المغيب الى الغرفة التي كانت تتزايد عتمة خلفه وكان هناك ضوءان صغيران يشعان في الظل وينبعثان من مشكاة تحمل صورة للعذراء يسطع النور الخافت على هدوئها المهيب ، وكانت هذه ايقونة للكنيسة الكاثوليكية الاغريقية وهي نقش على الخشب بألوان قاتمة متعددة كان كثير من مثيلاتها يعلق في كل الدور سواء أكانت للفقراء أم للنبلاء ، وكان أهل الدار يصلون أمامها •

والعذراء تتطلع الى الامام نحو الخلود حاملة طفلها فى ذراعها المثني وهو يبدو رمزا أكثر منه طفلا • وسار الامبراطور نحو الحضرة المقدسة وركع خاشعا أمام الايقونة •

وبينما كان قسطنطين غارقا في صلاته شعر بعد فترة بطرق خافت على الباب ، فنهض باستعجال واعتلى منصة العرش ولم ينبس بالاذن بالدخول الا بعد أن جلس جلسة ملكية رافعاً جبينه وباسطا ذراعيه على مسندي الكرسي الضخم • ودخل اثر ذلك حارس يرتدى الملابس الحمراء وأغلق الباب خلفه وكان هذا حارس الامبراطور الخاص نيقولاس وبالرغم من أن صوته كان واضحا ومؤدبا الا ان نظرته إلى سيده كانت نظرة عطف وحنان ، وأعلن « ان رئيس الحجاب ينتظر لطفكم سيدي » •

وعندما سمع الامبراطور النبأ وكان يبدو بوضوح أنه لم يكن يتوقعه تهلل وجهه ونزل مسرعا من المنصة قائلا « ادخله يا نيقولاس » • وفي أعقاب الحارس جاء رجل متقدم فى السن تبدو على ملامحه الحكمة والوداعة ، وكان هذا « فرانزا » رئيس الحجاب وموفد الشؤون الخارجية للحكومة • وتبادل الامبراطور وفرانزا التحية بود وقال الامبراطور ضاحكا بعد أن فارقه عبوسه وانبسطت أساريره : « انني لم أكن أنتظرك أنت عندما جلست على العرش » ، ولم يكن لقاؤهما لقاء حاكم وخادم مخلص بل لقاء صديقين قديمين •

فقد عاد فرانزا لتوه من رحلة الى الخارج استغرقت سنتين حيث ارسل موفدا للشؤون الخارجية وصديقا ودودا لينتخب من بين أميرات أوربة الشرقية امبراطورة جديرة بقسطنطين ، وقد وضعت كل ثروة البلاد وما هو أكثر منها تحت تصرفه فى سفارته هذه ، ورافقه أسطول مؤلف من سفن متعددة لحمل الهدايا الى الامراء الاجانب وجوقة موسيقية للتسلية • وقد عرضت ثروة أعظم مدن العالم أمام أعين النبلاء البلقانيين والروس والكرج ، وقد أبحر مع فرانزا أيضا جمع من الاطباء والرهبان في رحلته الودية •

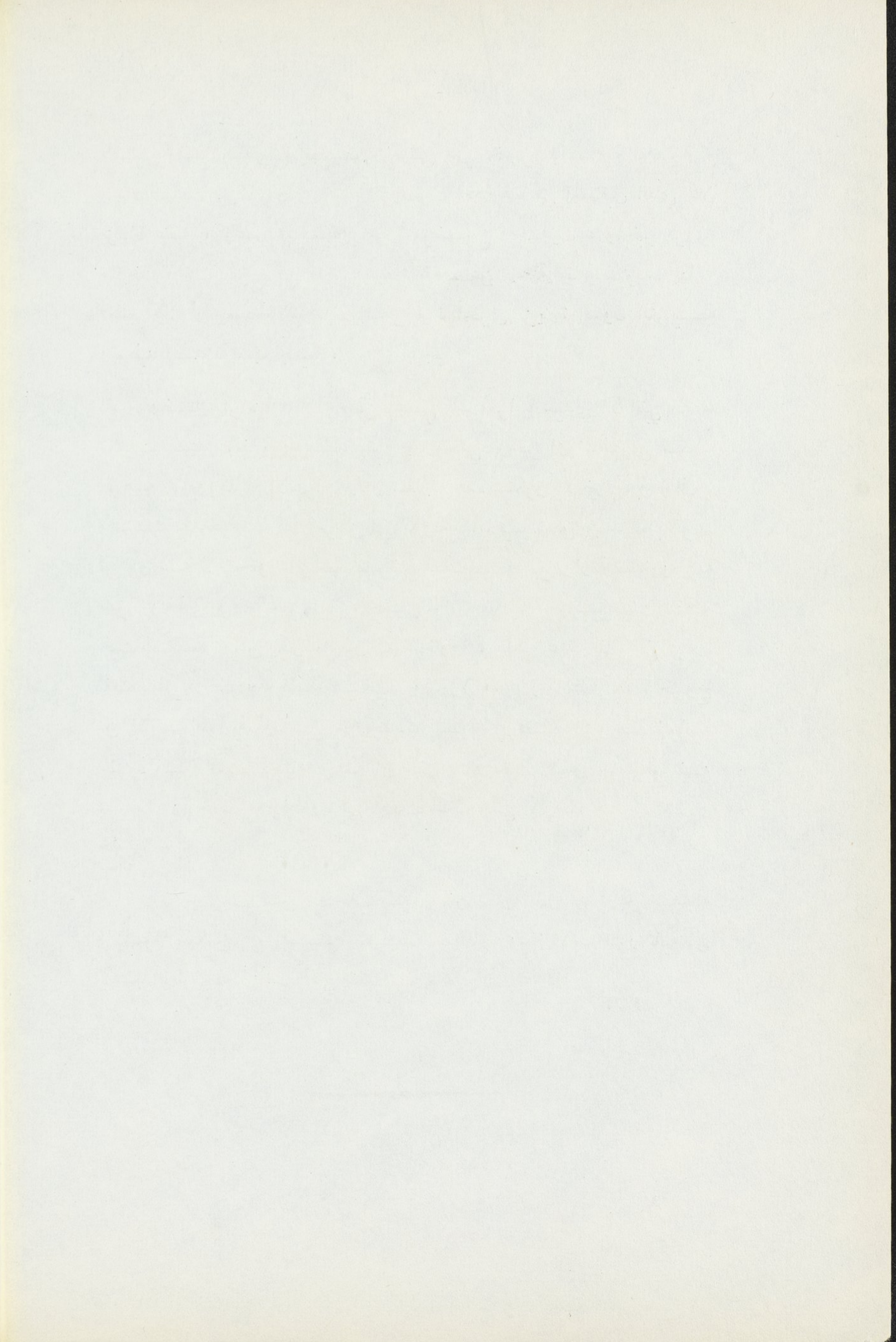
وتنقل فرانزا طيلة سنتين فى بحار مرمرة والايجي والادرياتيكي وتوقف في موانىء متعددة ، وأخيرا توجه صاعدا في البوسفور نحو البحر الاسود الداخلي حيث عثر على الاميرة المحظوظة التي كانت كرجية ذات عينين سوداوين ناعستين تنتسب الى بلاط شبه مجهول ، الا انها تتبع الكنيسة اليونانية وتصلي أمام الايقونات نفسها التي يصلي أمامها الامبراطور ، وقد عرض والدها بالاضافة الى الدوطة الكبيرة أن يقدم للامبراطور محاربين أشداء • وتم التوقيع على العقد ، وسوف تبحر الامبراطورة المقبلة خلال الاشهر القليلة القابلة عن طريق البوسفور الى القسطنطينية •

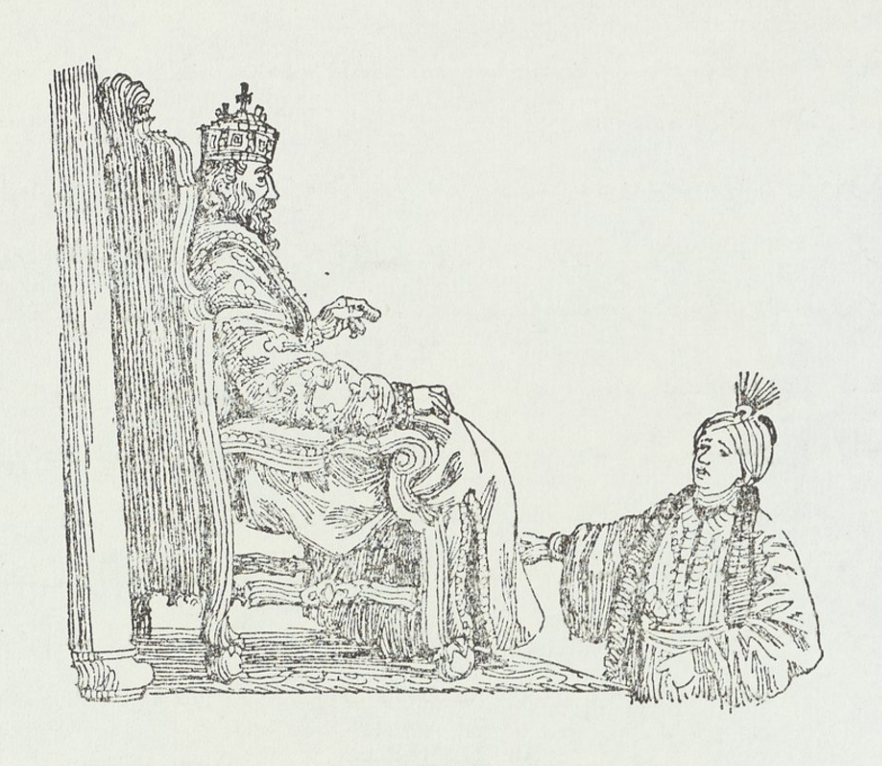
وقال الامبراطور : « لكم افتقدتك يا عزيزي فرانزا النبيل » ، وعلى الرغم من انه اجتمع بموفده مرات عديدة منذ عودته الا ان كل اجتماع كان يزيد من سروره • وأجابه فرانزا : « اننا نعمل للغرض نفسه حتى ولو افترقنا يا سيدي » ، وقال الامبراطور وهو يحدق في عيني رفيقه : « عسى أن نوفق الى تحقيق ما قطعنا من عهد ، وأن تدخل السيدة الجميلة أخيرا الى هذا الميناء المجيد » • وخفض فرانزا رأسه بعطف مؤيدا ، ولم يعد قسطنطين ملكا قاهرا فقد كان رجلا أحاطت به الهموم ، وقد ناقش التاريخ حكمة كثير من قراراته الا انه لم يكن من بين سكان تلك المدينة العظيمة النابضة بالحياة من هو أكثر منه حرصا على سلامتها • فلقد كان الامبراطور رجلا شجاعا وصديقا صدوقا ، وكان فرانزا موضع ثقته الوحيد ، وقال له بأسى : « انك الوحيد ، اذ انني محاط بالشكوك وعدم الثقة ، وقد أصبح رجال البلاط مشاكسين لا يمكن الاعتماد عليهم ، وعلى الاخص أحدهم » ، وأومأ فرانزا موافقا بينما استمر الامبراطور : « ففي حضوري يوافق على كل ما أقول وفي مجلسه الخاص يقول العكس ، ولهذا لا أتمكن من مقاومته بشكل سافر ، وحتى مناقشته ، لأنه ينكر وجود أي خلاف بيننا ! » • وعرف فرانزا أنه كان يعني الدوق الأكبر لوكاس نوتاروس قائد الاسطول ، وهو رجل عظيم الثراء يلي الامبراطور من حيث المركز • وأضاف الامبراطور بحسرة : « حتى

القسس انقلبوا ضدي ، انهم يقولون انني غير مخلص للكنيسة • أنا !! » •
وساد الصمت بين الرجلين ، فقد انحصرت أفكارهما في المستقبل الذي كان يزداد عتمة • وغيّر قسطنطين أخيرا موضوع الحديث ، وأخبر فرانزا متوخيا ادخال الفرح في قلب صديقه القديم عن رحلة مقبلة سيوفده بها • فعليه أولا أن يعود بالاميرة ثم السفر مرة أخرى لزيارة الدول الغربية وتوطيد الصداقة معها جميعا •

وضحك فرانزا قائلا : « لن أعصي لك أمرا يا سيدي الا انني اذا ما سافرت لسنتين أخريين فقد تتزوج زوجتي بآخر أو تنتظم في سلك الرهبنة » • وأكد له الامبراطور أن سفارته هذه ستكون الاخيرة ، وأضاف : « ستتسنم عند عودتك أعلى مركز في الدولة ، أما فيما يتعلق بابنك فعلى الرغم من أن سنه لا تتجاوز الرابعة عشرة فقد عثرت له على وارثة نبيلة ومثرية تليق زوجة له » • وأحنى فرانزا رأسه بالموافقة ، الا أنه لم ينبس ببنت شفة • حيث لم يسعه النطق بكل ما كان يثير مخاوفه ، ولكنه عقد العزم في قرارة نفسه على أن الرحلة المقبلة سينجزها ولده لا هو ، وان عليه عند الخروج من الامبراطورية أن يبقى خارجها سواء أرافقته الزوجة الوارثة المثرية النبيلة أم لم ترافقه ، عليه أن يبقى هناك حيث الامان ، أما هو نفسه فسيقف الى جانب امبراطوره في أوقات المحنة التي كان كلاهما يتوقعان حلولها •

وعندما ترك رئيس الحجاب سيده أخيرا كان الليل قد أرخى سدوله والاضواء تنعكس على المياه البعيدة تحتهما • وعاد الامبراطور ثانية الى الاستعداد لمواجهة الزائر الذي طال انتظاره •





٢

تركي يحذر

ووصل الزائر المنتظر أخيرا ، فأعلن الحارس نيقولاس « الوزير الاعظم خليل باشا » وكان خليل باشا[١] كما يعرف نيقولاس جيدا موفد السلطان التركي محمد الثاني ـ لقد كان رئيسا لوزراء الامة الاسلامية القوية التي

---

(١) الصدر الاعظم (جاندرالي خليل باشا) كان من وزراء السلطان مراد الثاني والد السلطان محمد الفاتح وقد أصبح رئيسا للوزراء في أوائل حكم محمد الفاتح واكتشف السلطان محمد فيما بعد خيانته وتجسسه لحساب الامبراطور البيزنطي فطرده من منصبه وأمر بسجنه واعدامه ٠

كانت تتحرك ببط نحوهم كغمامة مرعبة غطت سماء المدينة • ونظر نيقولاس الى سيده بقلق وأومأ قسطنطين برأسه ، وقلما تكلم الامبراطور والحارس بتعابير غير رسمية الا انه كانت بينهما ثقة وتفاهم متبادلان • وكان صوت الامبراطور عند اجابته ينطوي على لهجة آمرة لا خور فيها ، وقد تردد صداها فى الغرفة الكبيرة نصف المؤثثة « اسمح للوزير الاعظم بالدخول » •

وما أن أتم رسم علامة الصليب على صدره أمام العذراء وأعتلى المنصة حتى عاد نيقولاس يتبعه في هذه المرة خادمان يحملان مشعلين ووراءهما زائر الامبراطور مرتديا رداءً عريضا مطرزا وعمامة بيضاء • وعندما أحنى الضيف رأسه تحت بد الامبراطور الممتدة قال محييا : « مولاي » وأجال عينيه السوداوين في أثناء القاء تحيته هذه في الستائر الثقيلة المسدلة على الجدار المقابل وقال له الامبراطور مطمئنا : « اننا وحيدان » ولم يكن بوسعه الا أن يصدقه • كان الوزير الاعظم معروفا عند قسطنطين ، وهو رجل اجتاز مرحلة الكهولة ، أسمر البشرة ، ذو شاربين وأنف طويل مدبب ، صغير اليدين والقدمين ، وكانت ملابسه المترفة أروع بمظهرها من رداء الامبراطور القرمزي والى جانبه تدلى سيف مقوس في غمد فضي كثير الزخارف ، وفي أذنيه قرطان على شكل حلقات ذهبية كبيرة • وكان يلبس حذائين لينين مدببين يتقوس مقدمهما الى أعلى •

وكان هذان الرجلان يعرف كل منهما الآخر منذ أكثر من سنة ، وكان بينهما نوع من الاحترام المتبادل والثقة التي يمكن توافرها بين رجلين من مدينتين مختلفتين وديانتين تتباينان فى أسلوب عبادتهما الله ، وكان الامبراطور يعلم أن عليه أن يدفع ثمنا عن كل ما سيحصل عليه من المعلومات ، فقد كان عليه أن يدفع دوما ، أو أن يعد دوما بالدفع من الموارد المتضائلة لبلاده الفقيرة المريضة ، ولكنه كان يثق بهذا الرجل الاسمر الضئيل أكثر من الاخرين ، فقد اثبت دائما فيما سبق أنه صديق للمسيحيين ، وأدى خدمة كاملة عمّا دفع له • وكان أخطر الامور بالنسبة للامبراطور هو استمرار

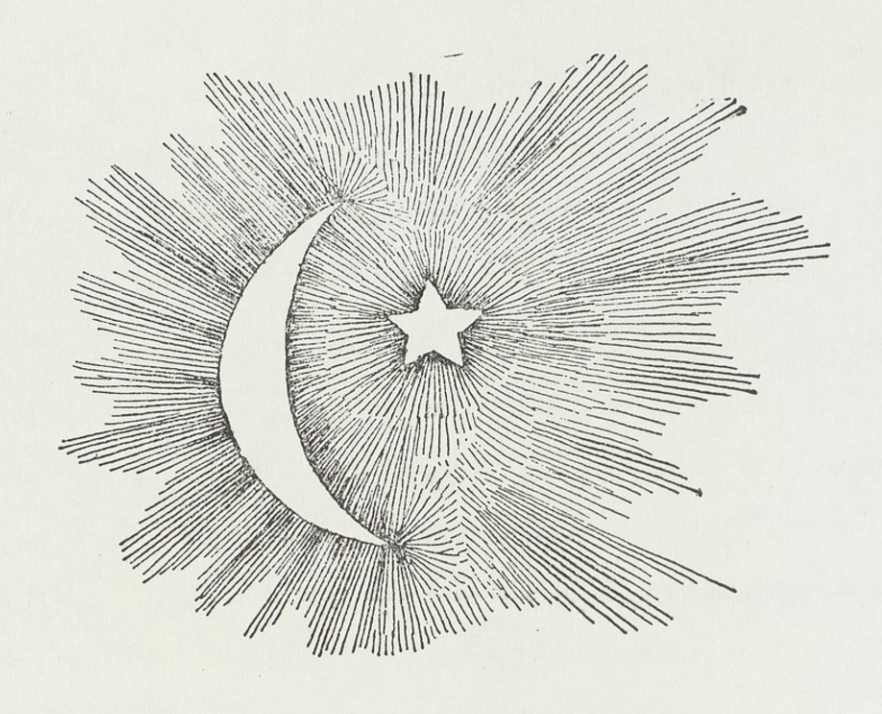
خليل باشا على الاحتفاظ بمنصبه رئيسا للوزراء في بلاط السلطان • وتركزت عينا الامبراطور المسيحي الزرقاوان المتعبتان على عيني وزير الاتراك العثمانيين الاعظم السوداوين المتألقتين ، ثم قال : « ما المعلومات التي تود أن تخبرني بها يا خليل باشا ؟ » • فأجاب الوزير الاعظم : « ان شفتيه تنطقان بالسلام ولكن قلبه ينبض بالحرب » • ولم تنبس شفتاه باسم ما ، الا ان قسطنطين عرف أنه كان يعني السلطان محمد • وأضاف الوزير قائلا : « انه فاتح ، فهو شاب لا يتقيد بالقوانين ، ولا توقفه عوائق ، وأي عهد يعرقل طريقه لا يتمسك به ، واذا كتبت لكم السلامة منه فاشكروا الله على ذلك •» وهتف الامبراطور بلهجة تدل على الأنفة · « هل تقترح علي ترك القسطنطينية ؟» واستمر خليل باشا قائلا بصوت خفيض : « انه يتحرك بسرعة وهو مستعد الان للبناء ، ولديه ثلاثون سفينة نازلة فى طريقها الى البوسفور محملة بالعمال • وسيأتي شخصيا على رأس جيش عظيم من أدرنة (أدريان بول) لملاقاتها هنا » • وأضاف مشيرا برأسه نحو البوسفور : « انه سينشىء مقابل القلعة الواقعة في الضفة اليسرى قلعة أخرى على الضفة اليمنى على بعد ستة أميال من هنا • وستحرس قلعتان لا قلعة واحدة المنطقة التي تكون فيها الضفتان بأضيق مسافة ضمن المضيق • ان ألف بناء من الدرجة الاولى فى طريقهم الان ، وقد خصص لكل منهم أربعة بنائين وعدد لا يحصى من الفعلة غير الماهرين » • وهز الامبراطور كتفيه دون اكتراث • وقال خليل باشا مضيفا : « ان سيدي مصمم على قتلكم جوعا » • وأجاب الامبراطور بصوت حاد : « ان سكان القسطنطينية لن يموتوا جوعا فان مخازننا تكفي على اطعام مئات الالوف » •

وأجاب خليل باشا : « لن يجرؤ بحار على المرور بسفينته من هذا الممر الضيق • فكيف ستستوردون غلالكم من السهوب الروسية ؟ وكيف ستستوردون المواشي من القفقاس لطعامكم ؟ وما عدد الافواه الآكلة التي عليكم اطعامها فى القسطنطينية ؟ » وأجاب الامبراطور بكبرياء : « حوالي المائتي ألف » • واستأنف خليل باشا كلامه : « وما عدد الايام والاسابيع

والشهور التي ستستطيع مدخراتكم أن تطعم فيها المئتي الف معدة خاوية التي تتبعك » •

وأجاب الامبراطور بصوت يزداد قوة : « الى أن نتخلص من سيدك ، وحتى نعيده الى سهول الاناضول مع قطعانه وخيوله ـ بل حتى نعيده الى مجاهل اسيا التي انطلق منها أجداده » وتصلب وجه خليل باشا ولكن لا عن غضب ، فقد لمس الشجاعة في كلمات هذا المسيحي ، ولكنه كان يعرف أيضا الاندفاع والضراوة التي يتميز بهما سيده السلطان ، ولم يكن الوزير نفسه جبانا • وقال أخيرا بأسى « لقد أنذرتك بما سيحدث منذ ستة أشهر ، وما أنذرتك به حينئذ تحقق الان ، ولن يسعني أن أعمل أكثر يا صديقي فلست فى الحقيقة أكثر من حصاة فى جدول • فأنا معروف حاليا بصداقتي للمسيحيين ومن يدري فقد يكون ذلك سبب الابقاء على حياتي فقد أكون حيا أكثر فائدة لسيدى مني ميتا بالنظر لما أعرفه عنكم ، وسيفقد هذه المعلومات بموتي • الا انني أوصيك فقط بالاستعداد اذا كنت مصرا على أن تبقى قائدا متمسكا بعناده ولا تنوي الانسحاب • فبعد ستة أشهر أخرى سيدوي الرعد وتخر الشهب » •

وعندما خرج الزائر توجه الامبراطور ثانية الى الشباك الضيق ينظر منه ، وكانت الاضواء من نوافذ متعددة تبدو كنجوم أرضية • وعلا صوت من يردد أغنية تحت القصر • أكان ملاحا مرحا عاد بسفينته الى الوطن يبدي سروره بترديده مع ضربات مجاذيفه ؟•• أم أن الصوت انبعث من احدى حانات الخمور المتعددة ؟ •



٣

خطوة الى الوراء في الماضي البعيد

مضى ما يزيد على ألف عام من عهد قسطنطين الكبير الى عهد الامبراطور الحالي قسطنطين باليولوغوس ـ قسطنطين الحادي عشر ـ الذي يقف الان في قصر بلاشيرناي الكالح •

ان كل ما تبقى من تلك الامبراطورية العظيمة تضمه الآن الاسوار التي يجيل فيها الامبراطور قسطنطين باليولوغوس طرفه من قصره المنتصب على الرابية • لقد كانت الامبراطورية التي اتخذت القسطنطينية عاصمة لها تمتد في وقت ما من رأس قدم شبه الجزيرة الايطالية الى نهر الفرات العريض في آسية ، ومن الدانوب في أوربة الوسطى الى مساقط النيل في أعماق أفريقية • ولكنها انكمشت الان الى مثلث من الشوارع

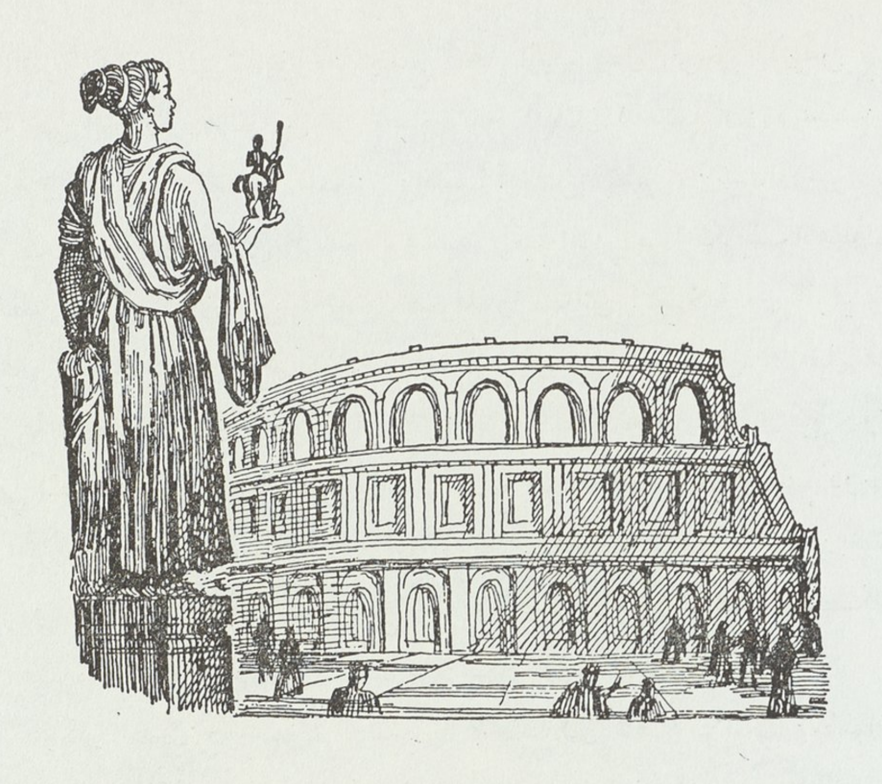
الضيقة والكنائس الضخمة ذات القباب والقصـور والدكاكين ـ واقتصرت على الرغم مما قاله الامبراطور لخليل باشا على ١٠٠٫٠٠٠ من السكان فقط . ان الامبراطورية تقلصت الان الى مدينة ولكن هذه المدينة قد صمدت ألفا ومئة عام ولا تزال صامدة بروعة وكبرياء داخل أسوارها القوية .

ان القسطنطينية احدى المدن الاربع العظيمة فى العـالم التي تقف في تأثيرها على فكرنا وطرز معيشتنا على قدم المساواة مع أثينا وروما والقدس ، فلو لم تكن القسطنطينية لما عرفنا القانون الروماني ، ولعرفنا القليل جـدا عن الفن اليوناني ، ومن المحتمل أن المسيحية نفسها كانت ستزول . ان كل هذه الامور أمكن الحفاظ عليها طيلة أحد عشر قرنا فى ذلك المعقل الشرقي ـ مخزن النفائس بالنسبة الى الامبراطورية العظيمة .

ولقد أسهمت عدة عوامل فى اعطاء القسطنطينية هذه الاهمية العظمى ، مثل طبيعة موقعها ومناخها وموقعها على ملتقى ثلاث طرق مائية . والقسطنطينية مثلث يحادد الماء ضلعيه ففي الشمال الغربي يمتد ميناء طويل مقوس هو القرن الذهبي الشهير ، والى الجنوب الغربي يقع بحر مرمرة ، وبين البحرين يجري بحر البوسفور بسرعة وقوة الانهار نازلا من الشمال . الا ان الطرق المائية ليست عامل القوة الوحيد في القسطنطينية لان بناءها على سبعة تلال كما بنيت روما يؤمن لها ـ بهذه التحصينات الطبيعية ـ الحماية من الجانب البري . أما مناخها فليس شديد الحر ولا قارس البرد ، ففي الصيف تبرد المدينة الرياح القوية المقبلة من السهوب الشمالية ، وفى الشتاء تدفئها أحيانا الرياح المقبلة من الصحارى الجنوبية الحارة . فمناخهـا متغير وهو أكثر اثارة للنشاط من المناطق الجميلة الاخرى المحيطة بالبحر الابيض المتوسط ، اذ ان طقسـهـا يجعل أهلها نشيطين ودؤوبين منتجين . هذه اذن القسطنطينية فى طبيعتها أما تاريخها فيبدأ سنة ٣٣٠م عندما جعـل منها قسطنطين الكبـير امبراطور روما بروعته وعظمته العاصمة الشرقية للعالم الروماني ، فهل كانت هذه البـداية الحقيقيـة ؟

لقد كانت هناك مدينة صغيرة تدعى بيزانطيوم في هذا المثلث قبل عهد قسطنطين الكبير بأمد طويل ، أما كيف تكونت ومن أنشأها ، فقد ضاع ذلك في ضباب عهود ما قبل التاريخ ، ولكنها كانت هناك منذ فجر التأريخ مدينة قوية صغيرة في رأس المثلث تماما . لقد كانت يونانية ووثنية وجعلت منها طرقها المائية ميناء بحريا تجاريا نشيطا . ولكن العالم في تلك الايام الغابرة كان يعرف قليلا من السلام فقد اشتبكت بيزانطيوم عبر القرون في الحروب الدائرة واستولى عليها الفرس ثم استعادها اليونانيون . وأول الذين تبرز أسماؤهم في تلك العهود الغابرة هو فيليب المقدوني . ـ حاكم شاب يحكم بلدا حديثا متوثبا ـ فقد نظر الى بيزانطيوم الزاهرة نظرة حسد . وكانت الحرب سهلة في تلك الايام الخالية . فبنى فيليب خطته للاستيلاء على بيزانطيوم على المباغتة وانتظر حلول ليلة عاصفة حالكة الظلام وحين كان أهلها نائمون والامطار تهطل والرياح تزأر حمل جنوده على المدينة حيث تسلقوا الاسوار وزحفوا سالكين الممرات التي تحت الارض ، وبهدوء استولوا على الشوارع الهادئة النائمة . ثم تبدل على حين غرة اتجاه الرياح فساقت الغيوم العاصفة وكشفت عن القمر وكان نوره الباهر قويا مفاجئا جعل الكلاب تعوي بالتعاقب في جميع أنحاء المدينة وشعر السكان الذين استيقظوا من نومهم بسبب ذلك بدخول العدو فهبوا مسرعين الى السلاح وقبل أن ينتهي الليل كان المقدونيون الذين دخلوا المدينة كافة قد قتلوا الا من استطاع الفرار منهم . وبالنسبة للبيزنطيين كان هذا النصر على فيليب معجزة حققتها الآلهة وقد خلدوا الحادثة برسم الهلال على نقودهم وراياتهم فأصبح هو والنجمة رمزا للمدينة وما يزالان حتى الان مرسومين على علم اخر فاتحي القسطنطينية . وعندما حكمت روما العالم أصبحت بيزانطيوم حليفة لروما ، وكانت الترتيبات مثالية، فقد بقيت مدينة حرة ولكنها بفضل تحالفها مع أعظم قوة على الارض اكتسبت حماية اضافية . كانت السياسة الرومانية معقدة ولبعد المدينة الشاسع عن مركز الادارة ارتكبت بيزانطيوم أخطاء تزيد على الواحدة ، الا ان غلطتها الاخيرة كانت خطيرة ، فقد كانت نهاية وبداية .

ففي القرن الرابع الميلادي كان النزاع ناشبا بين امبراطورين رومانيين ، هما ليكنيوس في الشرق وقسطنطين في الغرب ، وشارك في هـذا النزاع البيزنطيون • وقد كان ليكنيوس طاغية خبر الزمن ، أما قسطنطين فقد كان قائدا عسكريا حديث السن طموحا أكسبته المعارك خبرة على الرغم من حداثة سنه وربط البيزنطيون مصيرهم بليكنيوس أكبر الخصمين سنا وأقلهم ضراوة في القتال ، وكان بوسع هذين الخصمين اقتسام العالم الروماني بينهما والعيش بسلام وهو ما كانا قد قاما به فعلا لمدة تسع سنوات • وكان قسطنطين مغامرا ولد فى الاراضي الموحشة قرب الدانوب وتوج قيصرا فى بريطانية الاكثر وحشة منها ، وكان القائد المنتصر فى حروب ضارية شملت قارة اوربة البربرية ، وكان قاهر روما على استعداد للاستقرار والهدوء ولكن لا في روما اذ أن روما كانت تبدو له مدينة متفسخة تطرفت في مدنيتها • وعندما شاهد بيزانطيوم عرف أنه وجد فيها بغيته وعبر عن ذلك بقوله « انها ذات جمال لا ترتقي اليه أية مدينة خلقها الفن الانساني ، ولا يوجد أي موقع يماثلها بمنعتها الطبيعية » • ولم ير قسطنطين في كل حروبه ما يعادل بيزانطيوم ، ولم يكن الاستيلاء على المدينة بالامر السهل ، فقد تطلب ذلك حصارا شديدا أيّد اعجاب قسطنطين بدفاعات المدينة،ونجح بالتدريج بشق طريقه حربا الى داخلها ، فاستسلم الامبراطور ليكنيوس ثم أعدم بعد سنة ، ولتثبيت النصر وتوطيده نفذ حكم الاعدام في ابن ليكنيوس أيضا •



٤

المؤسس
قسطنطين الكبير

لقد كان قسطنطين الان الحاكم الوحيد للامبراطورية الرومانية وقد استولى على مدينة بيزانطيوم سنة٣٢٤م واختارها عاصمة له سنة٣٣٠م وكان يحلم بأن يجعل منها أعظم مدينة في العالم ، وقد تمكن من تحقيق حلمه هـذا . فشرع أولا بتوسيع حدود المدينة لتشمل المثلث كله لا رأسه فقط ، ووضع الخطط لتغطية التلول بالابنية العظيمة ، وأخذت ثروات الامبراطورية تنتقل

الى الشرق والثروات تتدفق من جميع أنحاء العالم فنقل الرخام الابيض من المقالع في الجزر ، والتماثيل من مصانع بلاد اليونان القديمة ، والاعمدة المنمقة والافاريز الرائعة من المعابد ، ونصبت أقواس النصر ، وبنيت الاسوار ، وأبواب المدينة ، والمجاري المرتفعة ، وأعيد ترميم الباقي منها بتكاليف باهظة • وبالنظر لوجود ثروات روما تحت تصرفه والجيوش الضخمة من الرقيق لانجاز تلك الاعمال شرع قسطنطين بتطبيق منهج بناء لم يسبق له مثيل في السرعة والضخامة • وتوجه أرباب الثراء من جميع أنحاء العالم تاركين روما وباقي المدن القديمة عندما علموا بهذه المشاريع الواسعة مصطحبين معهم ذويهم وبواخر محملة بأمتعتهم البيتية الى هذه المدينة الجديدة وسرعان ما بني اربعمئة قصر وعدد من الحمامات العامة بلغ المئة والخمسين ، وزاد عدد السكان على عشرة أضعافه وسرعان ما زاد على سكان روما نفسها •

وكان الملعب دوما مركزا للمدينة ، فقد كان ميدانا للالعاب ومضمارا للعجلات وساحة لعرض الابطال العائدين ثم أصبح فيما بعد محلا لتجمع الجماهير الثائرة وساحة لتنفيذ أحكام الاعدام ينعكس عليه المجد والمأساة ، وأصبح الآن وقد امتدت اليه يد قسطنطين الباذخة فوسعت كثيرا من حجمه وزادت روعته بالتزيينات الكثيرة •

ولنحاول أن نتصور ساحة مستوية بيضوية الشكل كبيرة المساحة في مركز المدينة تبلغ مساحتها اثني عشر فدانا ونصف الفدان ، وفي منتصف هذه الساحة مسلة مصرية ــ لا تزال قائمة ــ وفي احدى نهايتيها عرش الامبراطور وامتدت على طولها الكبير صفوف متعاقبة من التماثيل الضخمة منها عذراء ضخمة تحمل براحة يدها اليمنى فارسا وجواده بحجمهما الطبيعي وتمثالا نحاسيا لهرقل يبلغ من الضخامة حدا يستطيع به الرجل المتوسط الطول الوصول الى ركبته فقط • ثم تمثال ضخم لفيل هائج وهيلين (الشهيرة باقتران ذكرها مع باريس ومينيلوس) وثمانية تماثيل لابي الهول ولذئبة وضبع ، وقد علقت الجماهير الغاضبة على هذا التمثال الاخير جثة امبراطور خائن من قدميها بعد أن قامت بشنقه •

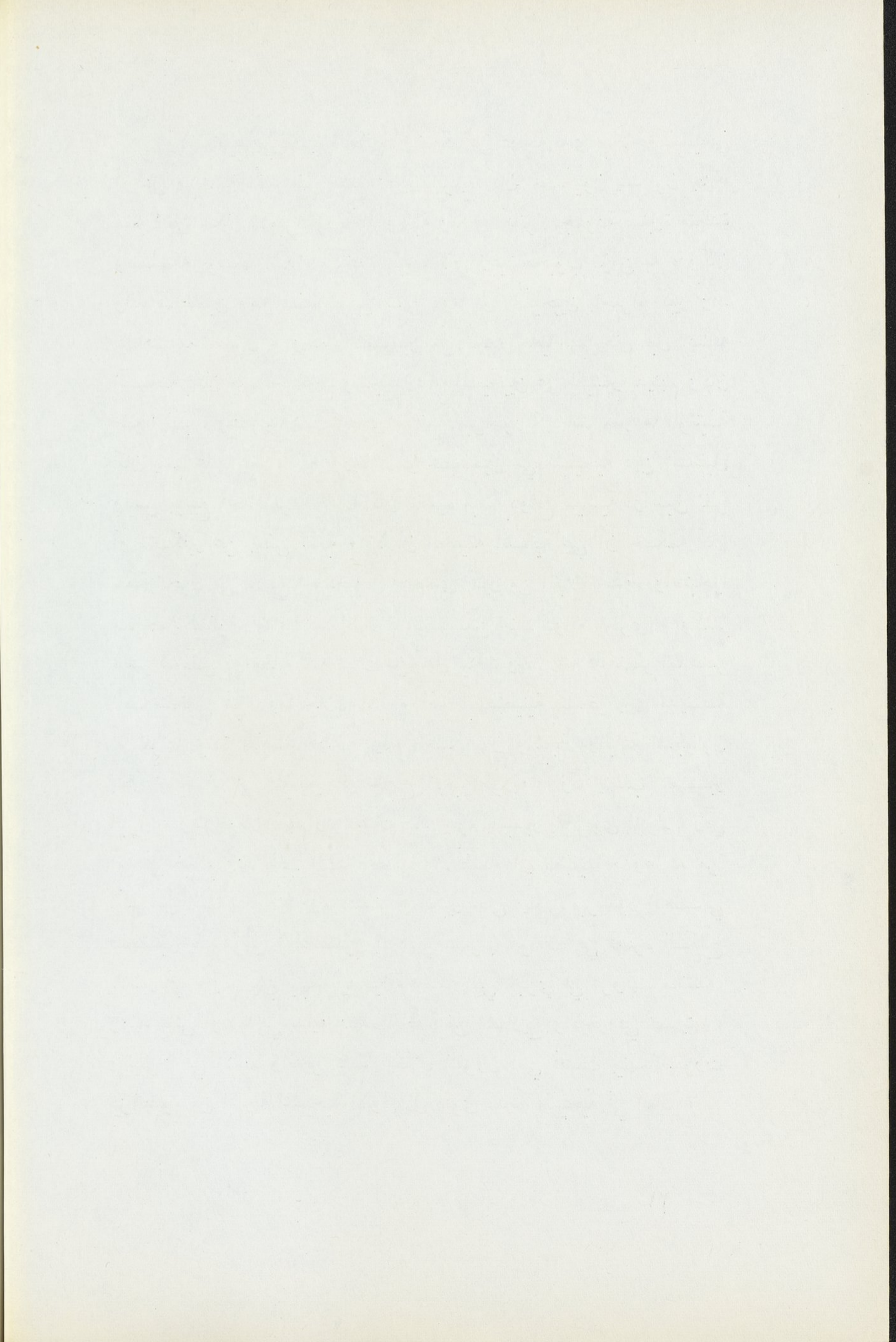


ولم يكن كل ما مضى فنا عظيما بل كان ضخما بهر عالم زمانه • وبمرور الزمن تزايد عدد التماثيل حتى على الاحياء وأصبحت هناك مشكلة عالم غير بشري من النحاس والبرونز والرخام •

(ان أشهر تزيينات الملعب بالنسبة للعالم المعاصر هي مجموعة من أربعة جياد مربوطة معا ، وهي تعدو ، ويمكن مشاهدة نفس الجياد القديمة هذه حاليا في مدينة البندقية حيث تحرس مدخل كاتدرائية القديس مارك ، وقد سرقها من القسطنطينية - كما سنرى فيما بعد - المغيرون البنادقة في القرن الثالث عشر) • وفي يوم تدشين المدينة - ١١ ايار ٣٣٠م - سار موكب طويل في الشوارع الحديثة التبليط متوجها الى داخل الملعب ونظر الامبراطور من عرشه في الناحية الشمالية من الملعب الى الالوف من المواطنين الاشداء الذين كانوا ينظرون وقد تولاهم العجب وقد تجمع حول الامبراطور ذوو قرباه ولم تكن ضمنهم زوجته فاوسنا حيث كان قد أمر بخنقها في الحمام ولا ابنه الاكبر كريسبوس الذي كان قد حكم عليه بالاعدام سرا ولا والدته القديسة هيلينا حيث سبق أن ماتت ميتة طبيعية • أما باقي الامراء فكانوا حاضرين وهم مملوؤن حيوية ونشاطا دون أن يدروا ما يخبئه لهم المستقبل من حروب ستقلبهم الى أعداء يقاتل بعضهم بعضا دون رحمة ، وأحاط النبلاء القادمون من روما بالاسرة الحاكمة بما فيهم من قناصل ووجوه وقضاة بأرديتهم الفخمة وجلس المواطنون من ذوي المناصب والوجاهة على الجناحين ، وعلى امتداد جانبي الملعب وقفت كتل كبيرة مزدحمة من المواطنين الفقراء الذين كانوا يشكلون الكتل الصاخبة في المدينة •

واستغرقت احتفالات التدشين أربعين يوما ، وكان قسطنطين الكبير أول امبراطور روماني اعتنق المسيحية ، وتروي الاسطورة عن رؤيا تجلت له : ففي ظهيرة أحد الايام شاهد صليبا من نار في السماء ومعه الكلمات الآتية مكتوبة بحروف نارية أيضا « بهذه العلامة ستنتصر » وقد جعلته هذه الاشارة كما تروي القصة يعتنق المسيحية •

ولانستطيع فيعصرنا الحالي أن نحكم على درجة مدى صلاحه كمسيحي أو على متانة القصة ، ففي مطلع القرن الرابع كان المسيحيون يشكلون جزءاً صغيرا من سكان الامبراطورية الرومانية ولكنهم كانوا مجموعة صغيرة متحدة ومتماسكة بوسعها اسداء مساعدة كبيرة لاي زعيم محبوب تؤمن به ، وكان والد قسطنطين وهو قسطانتيوس ينظر دوما الى المسيحيين باحترام كبير وقد كافأهم بعدة طرق • وجعل قسطنطين من نفسه حاميا لهم حتى قبل اعتناقه المسيحية فكان متسامحا معهم وشجع زعماء المسيحيين على التبشير بدينهم وكان ظهيرا لهم ، وعند ما كانت احدى مدن الامبراطورية تحطم معابدها الوثنية كان ينعم عليها بمكافأة • وربما رأى قسطنطين في المسيحية دين المستقبل وليس بوسع أحد معرفة ما اذا كان تنصره مبعثه دوافع سياسية أو سبق نظر أو للتكفير عن بعض آثامه • الا أن الحقيقة الثانية هي أن حكمه كان نقطة تحول في تاريخ المسيحية ، واحتذى كثير من النبلاء حذوه وأصبحوا مسيحيين لينالوا رضاء الامبراطور ، اذ لم تكن هناك دوافع اخرى • وكلما تنصر شخص ذو مكانة تبعه المئات من أهل بيته ، ويقال انه قد تنصر اثنا عشر الف شخص في روما خلال سنة • أما القسطنطينية فتفتخر بانها مدينة لم تلوثها عبادة الاصنام قط • وقام العسكريون والتجار والباعة المتجولون بنقل تعاليم الكتاب المقدس الى خارج الامبراطورية ، ولم يتطلب تنصير البرابرة وقتا طويلا لانهم رأوا هناك ديانة يقوم بالتبشير بها أقوى الملوك لارقى أمة في العالم وقد طلب اليهم دخولها والانضمام الى معتنقيها • وها قد مر أكثر من الف سنة منذ أيام قسطنطين الكبير حتى أيام الامبراطور الحالي قسطنطين باليوغوس (قسطنطين الحادي عشر) الواقف في قصره الكالح بلاشيرناي • ولم يكن بينهما أية قرابة فالدماء التي تجري في عروقهما مختلفة، وقد عاش أولهما في بداية هذه الحقبة من التاريخ والاخر في نهايتها ، واشتركا في الاسم والدين فقط وخلال القرون التي فصلت بينهما تطورت بيزانطيوم من المدينة المسيحية الاولى الى أقوى مدينة مسيحية في العالم •





٥

المدينة تصبح امبراطورية
جستنيان وتيودورا

ظلت القسطنطينية ألفا ومئة عام عاصمة للامبراطورية الرومانية الشرقية وخط دفاع تجاه الشعوب غير المسيحية وخلال هذه القرون ظهرت احدى عشرة سلالة ، وهي احدى عشرة أسرة كبيرة حكمت الامبراطورية ، وكان بعضها حكيما وبعضها الاخر مفسدا ، الا ان ضعف الحكام وفسادهم قصر عن الاطاحة بكرامة ومتانة الشعب الخلقية . وجاءت السلالات ثم انقرضت، الا ان المواطنين بقوا كما هم .

ولنتفحص بعض المراحل المتباعدة في مجرى التاريخ ، ولننظر عن كثب في بعض الوجوه التي تلمع من خلال ضباب الزمن لنكشف عن الحوادث المثيرة التي لعبت فيها دورها • ولربما كان أكثر الاسماء شهرة في كل تاريخ القسطنطينية هو اسم جستنيان الكبير امبراطور الفترة (٥٢٧-٥٦٥) وحتى في الوقت الحاضر يؤثر (قانون جستنيان) على حياتنا اليومية • فقد درس جستنيان القانون والادارة وكان أول مشاريعه الكبيرة اعادة النظر في القانون الروماني وتنقيحه وكان قد وصل في تلك الفترة الى درجة كبيرة من الارتباك • لقد قام جستنيان باهمال الاجزاء العتيقة المندثرة وغير المفيدة وتوضيح ما تبقى وكان ذلك عملا جبارا لم يقدره الناس في عهده ولكنه كان يكفي لجعله أحد أعاظم الاباطرة بالنسبة للاجيال المقبلة •

وقام جستنيان نفسه أيضا ببناء كنيسة سانتا صوفيا العظيمة التي لا تزال قبتها الرائعةمهيمنة على المدينة وهي قبة ضخمة تعلو على الارض بمئة وثمانين قدما ولكنها مهندسة بشكل يجعلها شبه عائمة • وكانت في عهد جستنيان مبطنة بالفسيفساء اللامعة التي كانت تروي قصة المسيحية كلها بألوان شبه ذهبية مشعة وكانت الاقواس المتعددة في الممرات تقوم على أعمدة من الرخام الابيض ، أما المذابح فكانت تسطع بالذهب والفضة • وقد هتف جستنيان عندما كملت الكنيسة : « يا سليمان لقد فاق معبدي معبدك » • وقد قدر معاصروه روعة هذا الاثر الفني فجاء السائحون من أقصى البلاد لرؤيته ، وكان أهل المدينة يتجمعون فيها لاظهار اعجابهم •

وفي عهد جستنيان أصبحت لغة الامبراطورية يونانية تماما ، وأهملت اللاتينية ، أما المدينة فقد أصبح لها طابعها الخاص في الفن والبناء والتقاليد ، وهو يختلف عن اللونين الشرقي والغربي ، وأصبح هذا الطراز من الفن ، وحتى أسلوب اللباس معروفا تدريجيا باسم الطراز البيزنطي لتميزه عن الطابع اليوناني القديم أولا ولصفاته الخاصة به ثانيا •

وقد كسب جستنيان شهرة عن طريق زوجته تعادل شهرته بأعماله ،

فقد اشتهر بقانون جستنيان وكنيسة القديسة صوفيا ، وأخيرا بتيودورا • فقد جاءت الامبراطورة تيودورا التي تاسمها العرش من أفقر فقراء القسطنطينية حيث كانت تعمل مهرجة في جوقة تمثيلية كان والدها يعمل فيها مروضا للدببة، وكانت تيودورا تقوم بنفخ خدودها وتدوير عيونها بشكل يثير اعجاب المشاهدين وضحكهم ولكن جمالها الاخاذ كان أكثر تأثيرا في مستقبلها ، ولا نزال نرى في ما وصل الينا من صورها على الفسيفساء والالواح جمال ملامحها وحيوية عينيها مما يوحي بجاذبية حركاتها • وكانت بالاضافة الى ذلك ذات حذق ، وعندما شاهدها النبيل الشاب جستنيان وقع في حبها لاول لحظة، ولم يتمكن من التخلص من ذلك على الرغم من أنه لم يكن راغبا في التخلص • وأصبحت تيودورا شريكا قويا ومتنفذا في الحكم معه لمدة عشرين سنة ، ويروي أنه بقي الى الابد أمينا ومحبا لها •

وقد حلت بالعالم في عهد جستنيان كوارث كبرى كما أصابته نعم جمة ، فقد تعرضت القسطنطينية للزلازل أربعين يوما ، وشملت منطقة الزلازل سطح البر كله ، ويقال ان ربع مليون شخص قد لاقوا حتفهم بسببها• وشوهدت المذنبات في السماء وقد أرعبت السكان الذين كانوا يعرفون القليل من علم الفلك في ذلك الزمن • وفي السنة الخامسة عشرة من حكم جستنيان حل طاعون كان من أشد الاوبئة فتكا في التاريخ ، وقد انتقل من البلاد الحارة الى الدافئة ومن ساحل البحر الى الداخل منتشرا من قطر الى اخر نتيجة اختلاط الناس بسبب الحرب والهجرة، وفي ذلك العهد الذي لم يعرف فيه التطعيم والتلقيح كان المرض لا ينتهي الا بتلاشيه من تلقاء نفسه ، واستغرق ذلك اثنتين وخمسين سنة ، فمحيت مدن كاملة ، ومات الالوف يوميا في القسطنطينية وبقي الكثير من الفقراء دون دفن في الشوارع • ولكن المدينة استمرت تنمو •

وبينما كانت القوافل التي تحمل البضائع من الشرق كانت السفن تجيء من الغرب • وقد أصبحت القسطنطينية العاصمة العظمى للعالم بفضل

كنائسها وقصور أباطرتها وعاش الادب اليوناني القديم حيا في مكتباتها ، وفي ذلك المثلث الجبلي الذي يرطّبه رذاذ الماء المالح والرياح نشأ جيل من أشداء الرجال والنساء استمروا على العيش ، وعاشت معهم المدينة . وكان الاباطرة طغاة حتى ان أفاضلهم كانوا قساة ، ولكن الناس تمسكوا بالصبر والتحمل والقوة . وكما تنبأ قسطنطين الكبير صمدت المدينة في موقعها السوقي (الستراتيجي) وتمكنت من صد اعدائها من كل جانب ، فردت حملة اثر حملة من التاتار والبلغار والهون والغوط والسلاف ، وفضلا عن ذلك أصبحت أمة محاربة جريئة مظفرة .

وبينما كانت القسطنطينية تزداد ثروة وقوة كانت أوربة الغربية تنحلل وهي سائرة نحو الهمجية ، فقد اجتاح البرابرة القارة وايطالية ، وأصبحت روما مدينة ريفية لا أكثر . وفي الحقيقة حل وقت كانت فيه روما خالية من الاحياء لفترة قصيرة ما عدا الذئاب والثعالب فقد قام فاتح بربري كان يخشى عصيان الرومان المتذمرين باخراجهم جميعا منها . وحلت العصور المظلمة ، وأسدلت ستارة من الفوضى والجهل على ما كان يسمى قبل ذلك بالامبراطورية الرومانية الجبارة . وفي القسطنطينية فقط دون باقي العالم المتمدن استمر نور المعرفة يتوقد بشدة وفي كنائس تلك المدينة القوية ، فاستمرت الديانة المسيحية على التوهج وكأنها منار فى عالم مظلم .

٦

محمد
رسول الله صلى الله عليه وسلم

أسدلت العصور المظلمة ستارا على أوربة ، وضاعت مئات السنين من المدنية ، ولم يكن هناك خارج أقباء الاديرة أي فن أو أدب أو أمان . ولم تكن الطرق مؤمنة ، وكان هناك قليل من التجارة وبعض المدارس القليلة المبعثرة ، ولف الجهل أدمغة الناس طيلة أربعة قرون ، ونبت العشب في شوارع روما الجبارة .. كانت هذه أوربة المسيحية(٢) .

---

(٢) ترددت كثيرا في الابقاء على هذا الفصل أو حذفه من الترجمة العربية فهو في الحقيقة لا يتضمن ما يفيد القارىء المسلم اذ أنه بديهي بالنسبة اليه وقد يستثير غضبه حين تشتط المؤلفة فتبتعد كثيرا عن جادة الحق ، وقد اضطررت الى حذف بضع جمل لهذا السبب . ولكنني قررت أخيرا الابقاء على الفصل واضافة بعض الهوامش التي وجدتها ضرورية . والباعث الرئيس لهذا القرار هو قناعتي بوجوب اطلاع القارىء العربي على ما يعرفه قراء الاصل باللغة الانجليزية عن ديانتنا الحنيفة ورسولنا الكريم والصورة التي تخلقها أمثال هذه الكتابات في أذهانهم ليتسنى له تصحيحها عند بحث هذه الموضوعات معهم . وعسى أن يتفق القارىء الكريم معي في الرأي .

وخلال هـذه السنوات نفسـها كانت قوة متحفزة تتعاظم في الشرق وبدأت تندفع كالاعصـار من منطقة ضيقة ، ثم اندفعت الى الخـارج لتهز العالم بقوتهـا . ولم تستمد هـذه القوة حيويتهـا من معتقد سياسي أو من طموح فاتح ، بل من ديانة تؤمن باله واحد كالمسيحية وهو الله تعالى ، ولها نبي واحد هو محمد (صلعم) وتلعب هذه الديانة كقوة عظمى دورا عظيم الاهمية في قصة القسطنطينية . ومن الحقائق الغريبـة والمثيرة أن اليهودية والمسيحية والاسلام ، وهي الديانات الثلاث الكبيرة في العالم ، نشأت كلهـا في نفس الزاوية الضيقة من العالم وهي المنطقة الكائنة بين الساحل الجنوبي للبحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر وجبال فلسطين وجبال الجزيرة العربية وصحرائهـا . وهي منطقة دافئة طقسها حار توجد فيهـا أشجار النخيـل والقطعان والجمال والخيام ، ولا تتطلب الحياة فيها الجهد الذي تتطلبه في طقس أوربة القارس البرد ، فكان يتوافر للمرء في تلك الايام الغابرة وقت فراغ للتفكير عندما يرعى مواشيه أو يسير الهوينا على ظهر بعيره أو يتأمل النجوم من مدخل خيمته .. فكانت حياة تتيسر بها الخلوة ، وظهر بتأثيرها في تلك المنطقة رجـال مفكرون متصوفون تفتحت لهم عوالم الغيب فعرفوا الطريق الى الهداية وقادوا اليه اخوانهم البشر .

ولد الاسـلام في وهاد جزيرة العرب وأهـل الجزيرة العرب كانوا اخوة للعبرانيين ، فهم يعـدون ابراهيم الخليـل (ع) أبا لهم كما يفعـل العبرانيون من أهل التوراة . لقد ارتبط به العبرانيون عن طريق زوجته سارة ، وجاء العرب عن طريق جاريته هاجر وولدها اسماعيل (ع) الذي ضرب في الصحراء الحارة مع أمه حتى أبكاه العطش فأخذ يحفر بقدميه رمل الصحراء بحرقة حيث انبثق نبع ماء ، وكانت هـذه بداية الواحة التي أصبحت فيما بعد مدينة مكة وصار النبع بئر زمزم المشهور ، وأقام ابراهيم واسماعيل بيتا لله قربه فأصبحت مكة المكرمة محجا للناس . وكان هذا كله في أوائل عهد التوراة .

وفي أيام الامبراطورية الرومانية في حكم قسطنطين الكبير وجستنيان وأباطرة القسطنطينية الذين أعقبوهم مباشرة كانت جزيرة العرب شبه مجهولة فقد كانت صحراء واسعة جافة لا حدود لها ، تمتد في منطقة تقع بين مصر والبحر الاحمر ولا يسكنها سوى قبائل بدوية يرتدي رجالها الاردية البيضاء ، ويمتطون أسرع الخيول وعلى رمال صحاراها كانت تسير قوافل الجمال ببطء جيئة وذهابا كسفن في المحيط . ولم تكن هناك مزارع أو استثمار زراعي في المنطقة ، فلا شيء سوى الرمال والصحراء والفرسان . وكان هناك قليل من التعامل التجاري ، ولكنه لم يؤثر على تفكير الاباطرة والملوك الفاتحين الذين تكاد جزيرة العرب تكون غير معروفة لديهم .

ولد النبي محمد (صلعم) الذي بشر بالدين الجديد الذي نبت كشجرة ضخمة من بذرة صغيرة في حوالي سنة ٥٧٠م في مكة المكرمة ، ولم يكن من اسرة ذات امتياز(٣) ولكن مكة وحدها بين بلاد العرب كانت مدينة ذات علاقة بباقي العالم وقد كانت مدينة ذات معابد وثنية ومركزا تجاريا . وعندما كان محمد (صلعم) شابا يافعا رافق قافلة جمال حملت التجارة الى أماكن بعيدة . وفي احدى سفراته هذه عبر الصحراء عندما كان في الثالثة عشرة من عمره قابل راهبا مسيحيا يدعى جرجيس وأصبح الراهب الشيخ والغلام اللامع صديقين حميمين ، ولابد أن هذه الصداقة قد تركت أثرا كبيرا في نفس محمد (صلعم)(٤) .

وبعد سنوات قليلة تزوج محمد (صلعم) المرأة صاحبة تجارة القوافل التى كان يعمل لها (خديجة الكبرى) (رض) وكانت أرملة تكبره في السن . لقد كان محمد أميا غير متعلم ولكنه كان متوقد الذهن ، وكان في

---

(٣) ليست المؤلفة مصيبة فيما ذهبت اليه ، اذ أن من المعلوم ان الرسول (صلعم) من بني هاشم أعلى بيوتات قريش شأنا وكانت لهم سدانة الكعبة .

(٤) ان الراهب المشار اليه باسم جرجيس هو من ورد ذكره في كتب السيرة باسم (بحيرى) .

كل عودة الى البادية يفكر فيما رآه وسمعه وما يحيط به ، وعندما كان يخرج ليتأمل في السماء ذات النجوم ـ حيث كان وحيدا معظم الوقت ـ كان يطيل التفكير في ضعف البشر وجبروت الالـه وعظمته ـ الـه ابراهيم ـ الله الفرد الصمد الذي أخذ يشعر بوجوده • لقد كان محمد (صلعم) مصلحا وقف نفسه على معونة اخوانه من البشر في تحسين أحوالهم ورفع مستواهم ، ولكنه لم يتلق الوحي الا بعد أن بلغ سن الكهولة ، أي حوالي الاربعين عاما وبدأ بعد ذلك يبشر بالدين الذي جاء به ، وقد هبط عليه الوحي عندما كان وحيدا في خلوته بين الرمال والصحراء[٥] • ثم جاءه الوحي بعد ذلك مرات متعددة ، وفي كل مرة كانت تنتابه حالة روحية غريبة يلمس فيها ثواب المؤمنين في جنات الفردوس وما ينتظر الكفار من عذاب الجحيم في يوم الحساب العسير • وأخبر محمد في أول الامر زوجته وأصدقاءه المقربين فقط عما تلقاه من وحي ، وعندما أمر بتبليغ رسالته ازداد عدد المؤمنين به ، وأخذت جماعات صغيرة منهم تحيط به ، وأخذ يبين لهم بقوة لا تتأتى الا لمن ينطق بوحي يوحى قوله تعالى مبشرا المؤمنين : (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لا نضيع أجر من أحسن عملا • اولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الانهار يُحلّون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الارائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا)[٦] •

ومهددا الكافرين بما ينتظرهم من عذاب أليم : (ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ان الله كان عزيزا حكيما)[٧] •

---

(٥) هبط الوحي على الرسول (صلعم) لاول مرة في غار حراء في جبل النور على بعد فرسخين شمالي مكة المكرمة ٠

(٦) سورة الكهف الآية ٣٠ ، ٣١ ٠

(٧) سورة النساء الآية ٥٦ ٠

(هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم • يصهر به ما في بطونهم والجلود • ولهم مقامع من حديد • كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق)[٨] •

وبهـذه التهديدات الصارمـة وبالوعود الجذابة عن الثواب المنتظر والمقترنة بالنصح الحكيم الواقعي ، تكامل ما نعرفه اليوم بالقرآن الكريم ـ كتاب المسلمين المقدس •

كان محمد رجلا طويلا نحيف البنية ذا لحية مستقيمة مدببة ، أسود الشعر والعينين[٩] نافذ البصر وكان يعيش ببساطة ، يرتدي أخشن اللباس ويسير عاري القدمين في كثير من الاوقات • يحلب غنمه وينقل الماء لبيته ويكنس ويغسل مسكنه بنفسه ، ويفترش الحصر ويخصف نعليه • وكان رحيما بالفقراء والمرضى ومتبسطا معهم الا أنـه في وعظه وارشـاده كان جهوري الصوت يأخذ بألباب مستمعيه •

ويحث القرآن ، على غرار التعاليم المسيحية ، على المحبة والتآخي ، وكاليهودية والمسيحية بشر محمد (صلعم) بالوحدانية والايمان بالله وحده لا شريك له • ومعنى الاسلام هو الاستسلام لمشيئة الله ، فالمسـلم هو من سلّم بذلك • وكمـا في المسـيحية واليهوديـة يحترم المسـلمون الانبيـاء

---

(٨) سورة الحج الآيتان ١٩ ، ٢٢ •

(٩) كان محمد (صلعم) وسيم الطلعة ربعة في الرجال ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد ، ضخم الرأس ذا شعر رجل شديد سواده مبسوط الجبين فوق حاجبين سابغين منونين متصلين • واسع العينين أدعجهما ، تشوب بياضهما في الجوانب حمرة خفيفة وتزيد في قوة جاذبيتهما وذكاء نظرتهما ، أهداب طوال حوالك مستوي الانف دقيقه مفلج الاسنان ، كث اللحية طويل العنق جميله عريض الصدر رحب الساحتين أزهر اللون شثن الكفين والقدمين (حياة محمد ـ هيكل) •

المذكورين في الكتب المقدسة من ابراهيم الى المسيح[١٠] ولكنهم يرون أن محمدا سيد المرسلين • وبالاضافة الى ذلك لعن محمد الاصنام وأبطل عبادتها ، وكان ذلك عملا جريئا لان مكة كانت مركزا للوثنية العربية ومدينة تجمعت فيها أصنام العرب وأماكن تقديسها ، وكان عبدة الاوثان يحجون اليها من الصحراء ، وباستثناء محمد (صلعم) وأتباعه القليلين كان جميع سكان مكة من عبدة الاوثان[١١] • وقد هزأوا به فترة واعتبروه مختل العقل ، واتهموه بالجنون ، الا أنهم في آخر الامر أخذوا بتأنيبه وتعذيبه • وتحمل محمد (صلعم) أذاهم ثلاثة عشر عاما كانت مقاومتهم له خلالها تزداد عنفا • ومن ثم قرر الهجرة الى المدينة ، فهاجر اليها من مكة سنة (٦٢٢م) وتعتبر هذه الهجرة أساسا للتاريخ الاسلامي • وفي المدينة التي كانت ثاني مدن الجزيرة العربية أخذ اسم محمد (صلعم) يزداد ذيوعا وتزايد عدد المؤمنين برسالته وانتظمت قواعد الدين الجديد وشرائعه وتبلورت بوضوح • فقد منع على أتباعه الخمر وباقي المسكرات عندما بلغهم قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون)[١٢] •

وأمرهم بالصوم مبلغا قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون)[١٣] وفرض عليهم بموجب ذلك صيام شهر رمضان •

---

(١٠) يحترم المسلمون الانبياء كافة من آدم الى خاتم النبيين محمد (صلعم) •

(١١) لم يكن جميع سكان مكة من عبدة الاوثان ، بل كان بينهم يهود ونصارى وموحدون عرفوا باسم الاحناف ، وكانوا يؤمنون بآله واحد ، ومنهم زيد بن عمرو العدوي وقس بن ساعدة الايادي القائل (ان لله دينا هو أرضى لكم وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه • انكم لتأتون من الامر منكرا) •

(١٢) سورة المائدة الآية (٩٠) •

(١٣) سورة البقرة الآية ١٨٣ •

وشدد على طهارة البدن وأداء الصلاة بأوقاتها الخمس اليومية • فنقل لهم قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين ، وان كنتم جنبا فاطهروا ، وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لمستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتمَ نعمته عليكم لعلكم تشكرون)[١٤] •

وعندما عاد أخيرا الى مكة جاءها كزعيم معترف به ، يحيطه عدد كبير من أتباعه المتمسكين بتطبيق ما جاء به • وأصبحت مكة بعد أن كانت مركزا للوثنية مدينة المسلمين المقدسة وبقيت كذلك الى يومنا هذا • وحين يسجد المسلم الصالح للصلاة ـ وهو يفعل ذلك خمس مرات يوميا ـ تكون مكة المكرمة وبيت الله الحرام فيها قبلته في سجوده وقيامه • وبالنظر لما جاء به محمد (صلعم) من تعاليم حكيمة واقعية لقدرته الخارقة على التبشير بالدين الذي جاء به نجح في توحيد القبائل العربية في أثناء حياته ، وتم له عن طريق التشديد بأداء الفرائض تدريب العشائر البدوية على النظام ، وحرّم الخمر والقمار بالقوة (اقامة الحدود) وجعل أخيرا من محاربي العرب قوة تفوق باقي الجيوش فانقلبوا من رعاة مواش الى فاتحين لا يقهرون •

وفي فترات مختلفة من التاريخ الاوربي حمل المحاربون المسلمون أسماء مختلفة ، فعرفوا أولا باسم (المجاهدين)[١٥] ثم باسم (المغاربة)[١٦] ولاسيما في اسبانية ، ثم عرفوا أخيرا باسم المسلمين[١٧] •

---

(١٤) سورة المائدة الآية ٦ •

(١٥) المجاهدون — Saracens

(١٦) المغاربة — Moors

(١٧) المسلمون — Moslems "Mohammedans"

ويبلغ عمر الديانة الاسـلامية ثلاثة عشر قرنا وهي ثانى ديانـة بين أديان العالم في عصرنا الحالي بالنسبة لعدد اتباعها حيث يبلغ عدد المسلمين ضعف عدد المسيحيين البروتستانتيين في الوقت الحاضر •

والآن ـ كما كان الحال في عهد النبي محمد (صعلم) ـ يدعو المؤذن الناس الى الصلاة عند شروق الشمس وغروبها[١٨] من المنائر الاسطوانية الرفيعة متجها الى كل جانب ليسمع صوتـه للمؤمنين • وعلى أذانه يتجمع الناس على الماء للوضوء ثم يخلعون أحذيتهم ويصطفون بهدوء في المسـجد لاداء الصلاة • وعلى كل مؤمن الحج الى مكة اذا استطاع الى ذلك سبيلا ولو مرة واحدة في العمر •

انتقـل محمـد (صلعم) الى رحمة الله عام ٦٣٢م وهو في الثـالثة والستين ، وفي خلال مئة عام كما سنرى فيما بعد ـ فتح أتباعه جزءا عظيما من العالم المعروف ، وحتى في خلال حياة معاصري النبي وصحابته انتشر الاسـلام من بقعته الضيقة في الصحراء الغربيـة الى منطقة واسعة تمتد من نهر الاندس في آسية الى سـاحل الاطلسي • فبـدأوا أولا بالاستيلاء على القرى القريبة منهم ثم اندفعوا الى الخارج ولكنهم تمكنوا من الاحتفاظ بما استولوا عليه بفضل الديانة الاسلامية التي كانت تنادي بالاخاء في طاعة الله ولان معتنقيها لم يعترفوا بأي فرق في اللون والجنس أو القومية • ولذا فقد أظهر المجاهدون المحمديون تسامحا ازاء المسيحيين واليهود الذين كانوا في المناطق المحتلة ، وقد استفادوا في الحقيقة من الجزية المستحصلة من الاقوام المقهورة في أمور ذات نفع عام وكانت ادارتهم ناجحة فاستمروا يتوسعون •

وقد استولوا على مصر سنة ٦٤٢م وعلى جميع الامبراطورية الفارسية

---

(١٨) ان أوقات دعوة المؤذن النـاس الى الصلاة لا تقتصر على وقتي شروق الشمس وغروبها كما هو معلوم • وهناك بالاضافة الى ذلك صلوات الظهر والعصر والعشاء • وللصلاة أوقاتها الخمسة المعلومة لدى المسلمين •

سنة ٦٥٠م ثم عملوا على نشر ديانتهم فسكتت أجراس الكنائس وحلّ صوت المؤذن محلها ، وقبل حلول عام ٧٠٠م استولى المجاهدون المسلمون على جميع أفريقية الشمالية ، واستولوا بعد فترة قصيرة على اسبانية كلها تقريبا .

وأخذت القسطنطينية ترتجف لاصوات حوافر خيول المجاهدين التي أخذت تزحف عبر جبال آسية الصغرى وسهولها .

67



٧

المسلمون يحاولون فتح المدينة

بعد وفاة محمد (صلعم) ثبّت المجاهدون عيونهم البراقة على القسطنطينية ، فقد قال نبيهم ان أول جيش يحاصر المدينة ستغفر ذنوبه ، وروى عنه قوله (صلعم) ... (لتفتحن القسطنطينية ولنعم الامير أميرها ولنعم الجيش جيشها)[١٩] .

---

(١٩) روى الحديث الامام أحمد بن حنبل في مسنده باسناد حسن . ورواه الحاكم في المستدرك عن بشير الغنوي .

ولم تمر أكثر من أربعين سنة على وفاة النبي حتى قام أتباعه بمحاولتهم الاولى[٢٠] • ثم حاول جيش اسلامي طيلة ست سنوات طوال أن يحطم مقاومة المدينة ، ولكن أسوار القسطنطينية بقيت صامدة ، وعاد الجيش المعادي بعد أن قرر قائده الخليفة المسن معاوية بن أبي سفيان التخلي عن الفكرة[٢١] • ولم يقم المجاهدون طيلة جيل كامل بعد هذا الفشل بالتقرب من القسطنطينية لازالة أثر الهزيمة •

ولم يجر حشد القوات لمحاولة ثانية الا في سنة ٧١٧م[٢٢] وكان الحصار أشد وطأة من الاول وأقوى في عَدده وعُدده الا أنه كان أقسى في نتائجه بالنسبة الى المحاصرين الغزاة من المحاولة الاولى • فقد تعلم المسلمون من تجربة الحصار الاول أن ليس في استطاعتهم خرق الاسوار المنيعة ولذا بنوا خطتهم هذه المرة على انزال بحري ويقال انهم أعدوا لذلك ألفا وثمانمئة سفينة تنقل مئة وعشرين ألف محارب جاهزين للانزال • ويعزى السبب في صمود القسطنطينية بوجه هذا الضغط ثم انتصارها في النهاية على هذه القوة الكبيرة الى متانة الامبراطور ليو بالدرجة الاولى وهو المعروف باسم (ليو الايزوري) • فقد كان ليو امبراطورا عظيما وقائدا محنكا • نشأ فلاحا ثم أصبح جنديا مرتزقا وتقدم في الجندية لشجاعته في

---

(٢٠) توجهت الحملة الاسلامية الاولى الى القسطنطينية في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان (رض) وذلك في سنة ٣٢هـ (٦٥٠م) وكانت بقيادة معاوية بن أبي سفيان والي الشام آنذاك •

(٢١) كانت هذه الحملة الثانية في عهد خلافة معاوية بن أبي سفيان في سنة (٥٠ـ٥٥هـ) أي ٦٧٣ـ٦٧٧م وكانت بقيادة يزيد بن معاوية وقد اشترك فيها عدد من كبار الصحابة منهم الامام الحسين بن علي بن أبي طالب (رض) وأبو أيوب الانصاري ، الذي توفي في أثناء الحصار ودفن قرب القسطنطينية حيث يوجد قبره الآن ، وعبدالله بن عباس وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمر •

(٢٢) كانت هذه الحملة في سنة ٩٨هـ (٧١٧م) في عهد الخليفة الاموي سليمان بن عبدالملك وكانت بقيادة أخيه مسلمة وقد حوصرت القسطنطينية برا وبحرا ولعبت النار اليونانية دورا كبيرا في احباط الهجوم الاسلامي •

القتال ووصل القمة بفضل مقدرته وحدها وكان ما يزال شابا .

وكان ليو حاذقا في وضع الخطط ولما قدر أن قومه سيواجهون حصارا طويلا قام بتكديس المؤون طيلة الاشهر العديدة التي استغرقها زحف جيش المسلمين نحوه ، ولما كان هناك خطر الموت جوعا عند نجاح الحصار البحري عمل جهده لتقوية سفنه ـ وكان عددها قليلا جدا ـ اذا ما أراد استخدامها لهجوم ، ولذا أمن حمايتها بسلسلة هائلة أقامها لسد مدخل المرفأ ومنع أي سفينة قادمة من الخارج من دخوله ، وكان هذا هو (السد البحري) الذي سنسمع عنه كثيرا فيما بعد . ومن ثم توافر له سلاح سري فتاك سيرد ذكره كثيرا طوال البحث في تاريخ القسطنطينية العسكري وكان هذا السلاح (النار اليونانية) المرعبة .

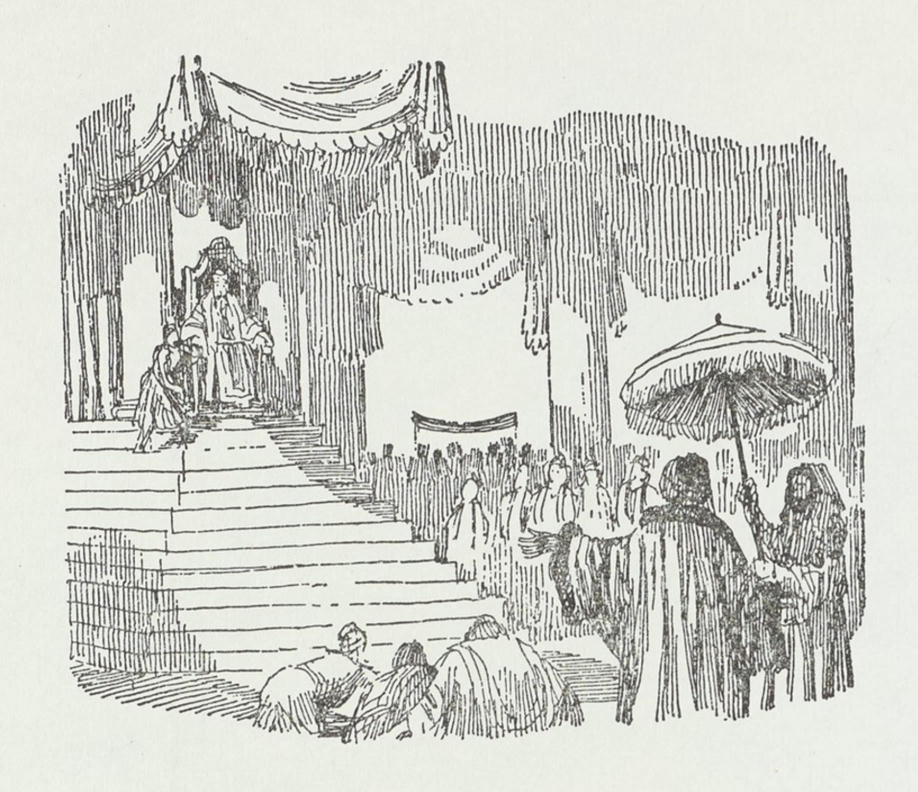
والمعتقد أن النار اليونانية خليط من النفط والكبريت والقار ولكن نسب التركيب كانت سرية . فكانت ألسنة القائمين باعداد الخليط تقطع لاغراض الامن وكان هذا سرا خاصا بالقسطنطينية فقط احتفظت به طيلة أربعمئة عام .

ولذا نرى أن الجانب المدافع قد استعد بزعامة الامبراطور ليو وهو مؤلف من محاربين شجعان ادخروا ما يكفيهم من المؤون ، وتحميهم أسوار قوية ، ودفاعات منيعة تحيطهم من كل جانب وتتيسر لديهم سفن جيدة في مرفأ محمي حماية قوية وقد توافرت لهم النار اليونانية المرعبة .

لقد أدى شتاء عام ٧١٧م القارس البرد الى موت الالوف من الغزاة المحاصرين الذين كانوا قد تعودوا على الطقس الحار . وشلت الرياح القوية والتيارات المائية في البوسفور سفنهم عن العمل وعندما حل الربيع كانت قواتهم قد ضعفت الى درجة كبيرة . وكان هذا الوقت الذي ينتظره ليو لانزال ضربته الكبرى فقد سدت السلسلة الثقيلة المرفأ طيلة الشتاء وقام الآن بفتحها بمكر لاغراء العدو ولما اقتربت السفن المعادية من المرفأ

كانت السفن الامبراطورية في الانتظار ، فغمرتهم النار اليونانيـة ، وكانت النتيجة دمارا تاما للسفن المهاجمة • فقد انهالت عليهم النار اليونانية من كل جهة من السفن ومن أسوار المدينة ومن البر ، وفي الارتباك الذي نتج عندما حاولت السفن الانسحاب طلبا للنجاة أخـذت تصطدم الواحدة بالاخرى وقفز الرجـال الى البحر وغرقوا فيـه وتحطمت هيـاكل السـفن وهوت السواري وضاعت المجاذيف • وفي تيـار البوسفور القوي انقلبت سـفن كثيرة وغرقت ، وعندما انتهت المعركة لم تبق سفينة مسلمة في مدى النظر ، ويقال ان خمسة منها فقط نجت وعادت الى سورية لتروي القصة • وكانت القصة هي قصة النار اليونانية ـ النار التي تصب على العدو من قدور كبيرة موضوعة على دكاك ، أو تقـذف بكرات متوهجة حمراء من الحجـارة أو الحديد ، أو ترمى بالاسهم أو الرماح المغمورة بالسائل الملتهب ، أو تنفخ من أنابيب طويلة من النحاس مثبتة في مقدم السفن • فتحدث دخانا أسود ثم انفجارا يصم الآذان ، ومن ثم ينتشر لهيب لا يمكن ايقافه ويسـير حتى على الماء •

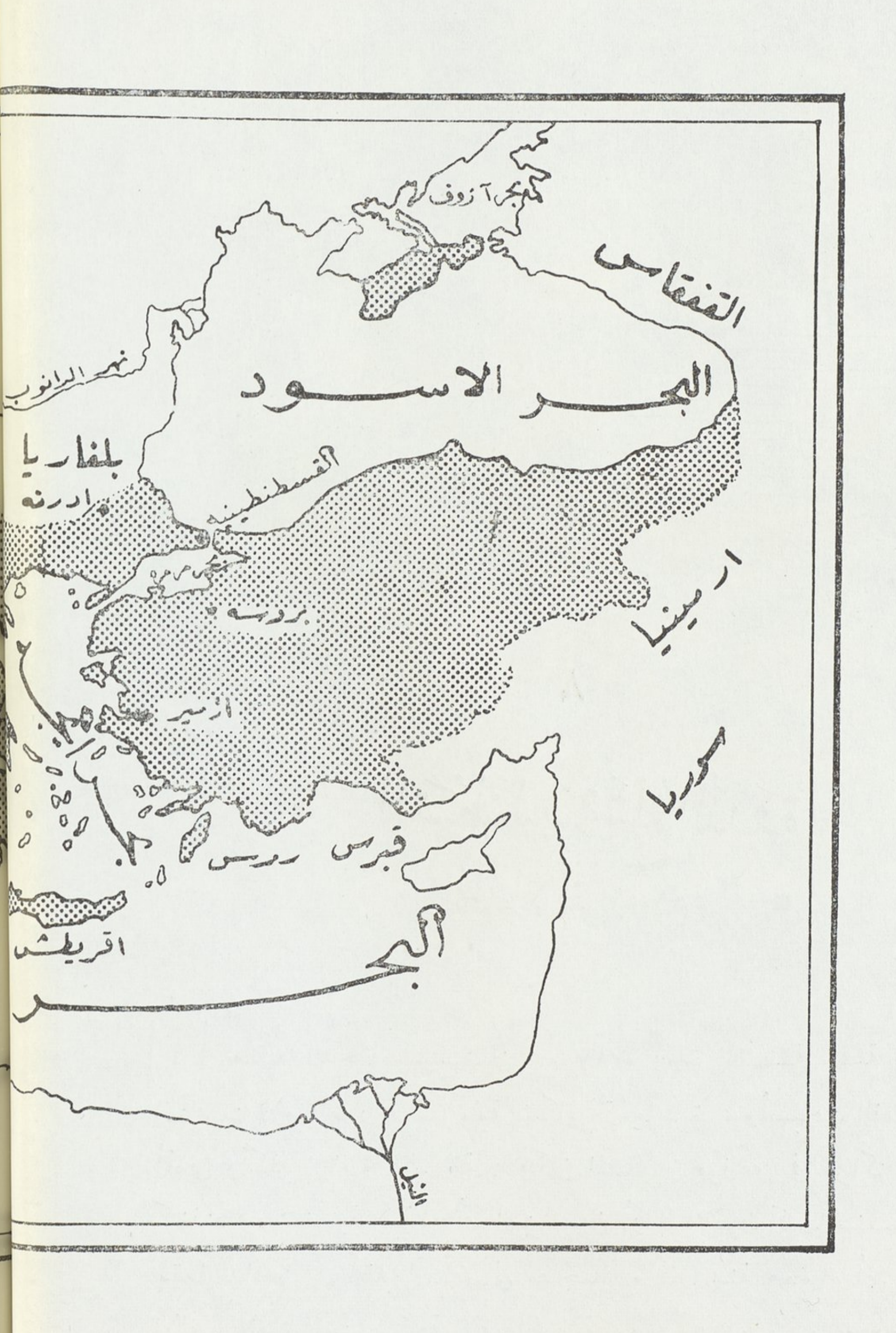
ولو سقطت القسطنطينية عام ٧١٧م لما عاشت المسيحية • ولذا فالعـالم المسيحي مدين الى ليو الايزوري بالحفاظ على المدينة والمسيحية لمدة ٥٠٠ سنة اخرى ، ولولاه لكان من المحتمل جـدا أن يتبـدل مجرى التاريخ • فلو نجح المسلمون سنة ٧١٧م لكان من المحتمل أن يـكون عالمنا اليوم عالما اسلاميا بحتا •



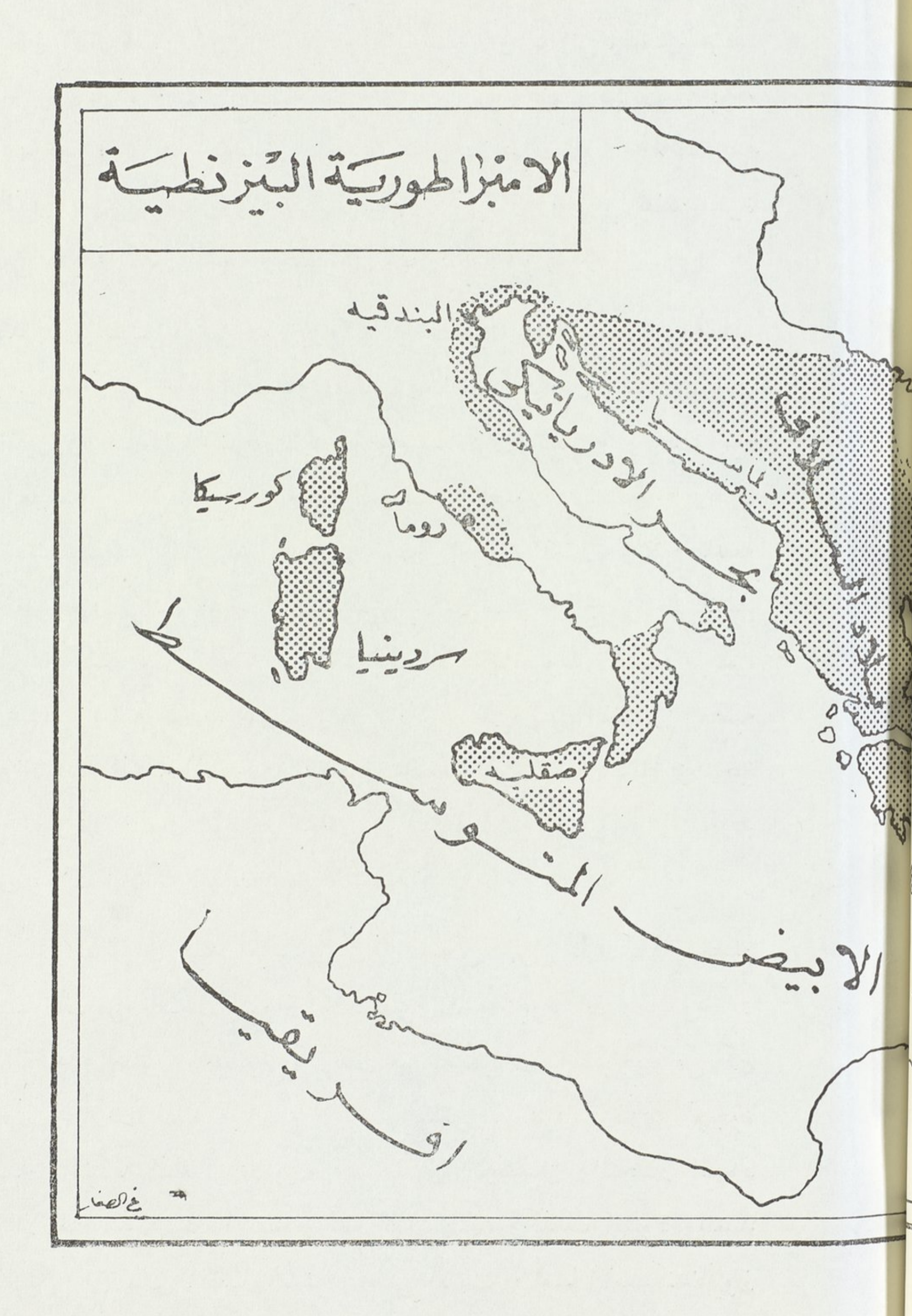
٨

القسطنطينية تبلغ الذروة
العام الألفى (١٠٠٠م)

بعد اندحار المسلمين عام ٧١٧م ولمدة ثلاثمئة سنة بعدها ازدهرت الامبراطورية البيزنطية بشكل فاق ما سبق ، وأصبحت القسطنطينية أقوى وأكثر ثراء وأعظم ثقة . وكان المسلمون موزعين في مراكز متباعدة كبغداد ودمشق وقرطبة . أما البيزنطيون أو اليونانيون كما سنسميهم فلم يبقوا مدافعين بل انقلبوا الآن الى مهاجمين . ففي سنة ١٠٠٠م أي العام الالفي الاول بلغت مساحة الامبراطورية ٦٥٠٠٠٠ ميل مربع وبلغ عدد



بحر آزوف
القفقاس
البحر الاسود
نهر الدانوب
بلغاريا
ادرنه
القسطنطينية
بروسه
ازمير
ارمينيا
سوريا
قبرس
رودس
اقريطش
البحر
النيل



الامبراطورية البيزنطية
البندقيه
كورسيكا
روماه
سردينيا
صقلية
البحر الادرياتيكي
المتوسط
الابيض

سكانها ٠٠٠ر٠٠٠ر٢ نسمة ٠

وكان الامبراطور بازل الثاني أول بيزنطي أو يوناني يصل هذا المركز ٠ وفي عهده وصلت القسطنطينية الى ذروة روعتها فكانت اعجوبة في نفائسها معترفا بها في جميع أنحاء العالم ومما بقي من المدينة القديمة ليس بالقليل ، ومن رسائل ومذكرات التجار الذين زاروها في تلك الفترة نتمكن من معرفة شكل المدينة ومظهرها بدقة يمكن قبولها ٠

فقد كان القصر الامبراطوري رائعا في عظمته وفي حدائقه المطلة على بحر مرمرة ٠٠ أبراج وجواسق وحمامات ومكاتب وسجون وبيوت لالوف من الموظفين والخدم ، وشرفات يزهو بعضها فوق بعض ٠ وكانت أبنية السكن العظيمة نفسها مزينة بالرخام والفسيفساء والصور والتماثيل ٠ وهناك نافورة مبطنة بالفضة كانت تملأ مرة في السنة بالفواكه الممتازة وتفتح للعامة وكان الامبراطور يراقب من عرشه الذهبي في أعلى سلم مدرج تزاحم الناس للحصول على كمثرى أو رمانة ٠ وكانت كنيسة سانتا صوفيا العظيمة مركزا لكل الاعياد الدينية يتجمع فيها الناس بالالوف على ضوء القناديل الفضية الهائلة والمصابيح العالية المتأرجحة ، وفوق جميعها تقوم القبة الهائلة في بحر من النور ، وكان صوت المرتلين يتلاشى في السقف المرتفع ويبدو وكأنه قد اختلط بأصوات الملائكة الهابطين من السماء ٠

وكانت الاسواق تمتد أميالا ، وكان يمكن شراء كل ما كان يصنع في عالمهم ذاك من تلك الاسواق ٠ كالمطرزات والمجوهرات ومصنوعات العاج والفضة والعطور والبخور ٠ وكان من الممكن رؤية الوجوه من كل بقاع العالم في أزقتها الملتوية ، فمن العرب السمر الى الروس ذوي الوجوه العريضة والبنادقة الطوال الانوف والسماكين الايطاليين والتجار اليهود والرعاة الارمن الذين كانوا يفدون لبيع مواشيهم ، وكذلك الهنود والعبيد وكان يمكن أن يرى أحيانا صيني أفطس الانف ، أما الاسكندنافيون

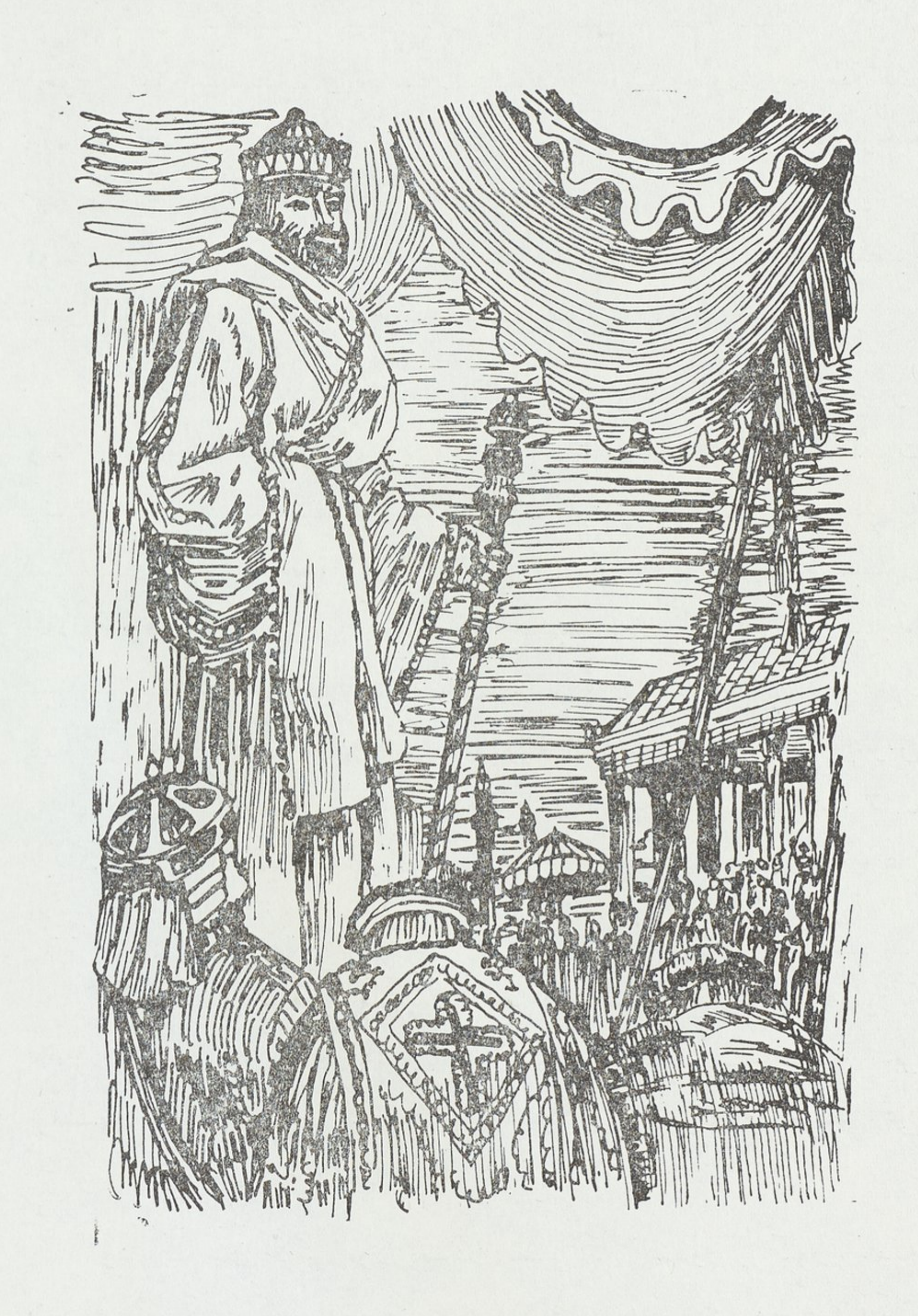
والانجلو ساكسون فكانوا يفدون بسفنهم الطويلة .

الا أن القسطنطينية نفسها كانت يونانية بكل ما تعنيه الكلمة . وكانت تحوي أيضا المستشفيات والجامعات والمياتم ومدرسة حقوق ومدرسة طب وأديرة وملاجىء راهبات . وكان فيها أحياء فقيرة تضم أزقة ضيقة موحلة غير مرصوفة تعوي بها الكلاب طيلة الليل ويختبىء بها اللصوص وتزدحم أوكار الرذيلة . وقد كتب أحد زائريها الكثيرين (اذا كانت القسطنطينية تفوق المدن الاخرى بنفائسها فانها تفوقها أيضا برذائلها) .

وكانت القصور ذات الشرفات المشجرة تزين السواحل وجزر مرمرة وكلا الساحلين الآسيوي والاوربي من البوسفور وكانت هذه اقطاعيات النبلاء . ولكن القسطنطينية نفسها كانت المركز فهي قلب الامبراطورية البيزنطية النابض مثلها مثل باريس في فرنسة . وكان الاباطرة يعيشون كالآلهة وكان على كل من يدخل الى حضرة الامبراطور أن يخر ساجدا بينما يبقى الملك نفسه على عرشه دون حراك . وكانت ملابس الامبراطور في أكثر الاحيان مزركشة ومطرزة بالجواهر الى درجة تمنعه من الجلوس وكان تاجه مثقلا بالذهب والفضة واللآلىء الى درجة تجعل خيوطها تنزل الى كتفيه ، وكان هناك أسدان ذهبيان على جانبي عرشه وهما قادران على الزئير ميكانيكيا ويرافق ذلك بنفس الاسلوب تغريد بعض الطيور .

وكان الزائر يفاجأ أحيانا بعد نهوضه من سجوده ورفع رأسه برؤية الامبراطور وعرشه وملحقاته مرتفعين في الهواء وكانت هذه لعبة تدبر بواسطة بكرات وروافع لتحقيق هذا الغرض وهو التأثير النفسي على الزائر الساذج .

وعندما كان الامبراطور يغادر القصر كان المنادون يركبون أمامه منذرين السكان بكنس الشوارع ونثر العطور والزهور أمامه ، وكان الامبراطور يحمل عاليا على منصة يرفعها العبيد وقد صبغ لحيته وشعره بلون



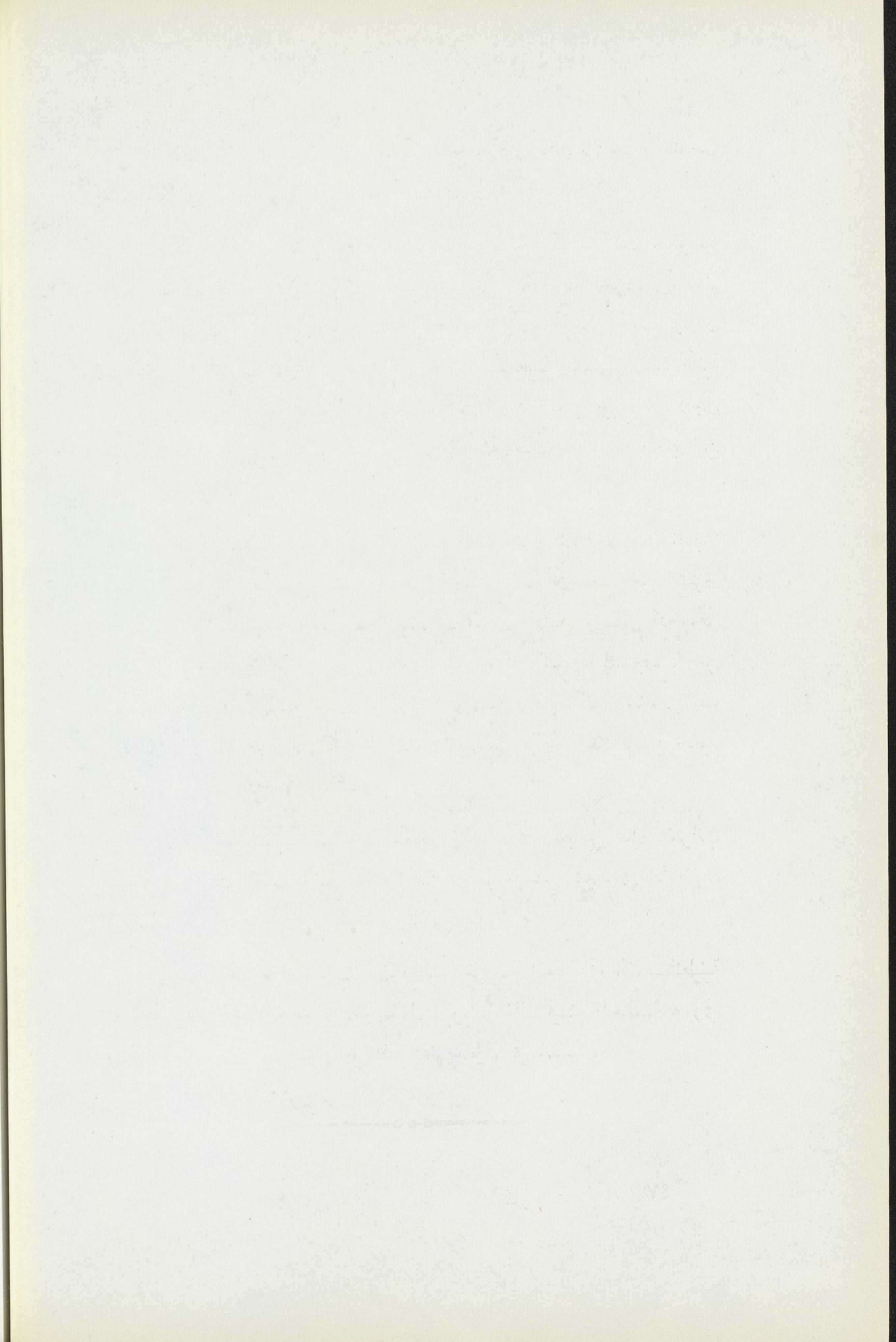
بني ، وشفتاه وخداه مطلية بلون أحمر فاتح ورداؤه الطويل مطرز بالذهب والمجوهرات وكان يبدو في الواقع كالـه غريب ٠

ولكن الامر لم يكن مجرد استعراض وبهرجة فقد كانت حكومة الامبراطورية متينة وكانت تؤمن معيشة آمن من أية مدينة اخرى في العالم في ذلك الوقت وخلال قرون متعددة أعقبته ٠ وبينما كانت باريس ولندن تستقيان ماء الشرب من آبار قذرة كان ماء القسطنطينية يصلها نقيا بأقنية طويلة مرتفعة ٠ وكان القانون والنظام سائدين ، وكان حتى بوسع أي رجل من عصرنا الحالي أن يعيش فيها برفاه وطمأنينة حيث يتوافر له الكثير من الزاد الفكري ٠

وكانت القسطنطينية مركز العالم في التجارة والثقافة ، فكان التجار يفدون اليها لبيع بضائعهم وشراء اخرى وكانت القوافل تفد من الشرق والشمال والسفن من الغرب والجنوب فكانت الهند ترسل الجواهر والتوابل ، وترسل الصين الحرائر ، وترسل بغداد وسورية السجاد ، ومن شمال البحر الاسود تفد الغلال والفراء ، وتستورد من البلقان الغلال ايضا والكتان ، وبالاضافة الى ذلك كان الغرب يمدها بالرقيق المنتزع من جميع البلاد ، من النرويج الى ايطالية ٠

وكان للقسطنطينية صناعاتها المنظمة والمحمية ، وتفرض عليها ضرائب فادحة ، وكانت القسطنطينية تملك ايضا حظائر مواشي كبيرة في الاناضول (آسية الصغرى) وحقول قمح في شمالي اليونان ٠

وعند وفاة بازل الثاني كان رصيد خزانة القصر في القسطنطينية أربعين مليون دولار وهو رصيد يعادل اليوم أضعاف قيمته الحالية ٠ وفي سنة ١٠٠٠م كان امبراطور بيزنطية أغنى حاكم في العالم ٠



٩

المؤمنون والكفرة

(ان الكافر هو من لا يعتنق دينا معينا • وفى القرون الوسطى كان المصطلح يطلق بصورة عامة من قبل المسيحيين على المسلمين ، وكان المسلمون فى الوقت نفسه يطلقونه على المسيحيين)[٢٣] •

مرت سنة ١٠٠٠ على القسطنطينية وهى فى ذروة مجدها فكانت فردوسا من الذهب والحرير واللآلي والرخام وكان أباطرتها أغنياء ومتعجرفين لا يمكن الوصول اليهم • وكانت تجارتها مزدهرة وكنائسها ملأى بالمسيحيين الورعين وكانت أوربة خلال ذلك أبضا أرضا موحشة لا تحوى الا الغابات والناس المتأخرين •

وفي سهول آسية الوسطى البعيدة كانت قوى جديدة غير مستقرة تنمو فى زخم متزايد ، والى الشمال فى جبال الهند بين بحر قزوين غربا وأراضي الصين القديمة شرقا كانت تعيش جماعات من القبائل الرحالة • وككل أقوام تلك الازمنة الغابرة وفى المحلات النائية كانوا فى حركة دائمة ، وكانوا دوما يقتلعون أوتادهم ويطوون خيامهم السوداء ثم يتنقلون بحثا عن مراع جديدة لمواشيهم • وكان البرد قارسا في تلك السهول التي تعصف بها الرياح

---

(٢٣) لا يطلق المسلمون اسم الكافر على المسيحي لانه من أهل الكتاب •

وكان هذا البرد يدفعهم دوما الى الحركة وكان الاتراك من بين هذه القبائل • وعندما ظهروا لاول مرة فى التاريخ كانوا قوما رحلا جلهم رعاة وفرسان ولم يكن لهم فى تلك الخالية موطن يستقرون فيه ولا ثقافة ، أما دينهم – ان كان لهم دين – فقد كان وثنيا ، ولكن منذ ذلك الحين كانوا مبرزين بين كل القبائل كمحاربين وكان القتال محببا اليهم وقد تعلم زعماؤهم مبكرا تنظيم الجيوش وضبطها ويقال أن الموت في المعركة كان أمنية التركي السوي ، أما الموت فى الفراش فيبدو أنه كان معيبا لديهم • وعلى حدود ايران اصطدم هؤلاء المحاربون الجوالون بالمجاهدين من المسلمين العرب الذين كانوا فى هذه المرحلة قد أصبحوا قوما مستقرين ذوى جيوش نظامية • وبالنظر لرغبة كثير من محاربي الاتراك الانخراط فى هذه الجيوش فقد اعتنقوا ديانة المجاهدين ، فانتشرت الديانة بسرعة خارقة بين اخوانهم من أبناء القبائل ، ويمكن القول أن الاتراك – كقومية – أصبحوا جميعا مسلمين فى عام ١٠٠٠م وكانت هذه حادثة ذات خطورة كبرى ، فامتزاج هاتين القوتين من الاتراك المحاربين والديانة الاسلامية ولدت خليطا لا يغلب ، فلولا العقيدة الاسلامية لكان الاتراك دون شك قد بقوا حتى الان رعاة مواش فى آسية الوسطى ، ولولا اسلام الاتراك لكان من المحتمل أن يضعف الاسلام ويزول • فقد اندفع الاتراك لاعلاء الدين ونشره وكان تحويل الناس الى مسلمين غاية مقدسة للاتراك • وقد اندفعوا لفتح العالم تحدوهم هذه الرغبة •

وكان أول من احتل موطىء قدم في آسية الصغرى من الاتراك هم السلجوقيون بقيادة سلطانهم ألب أرسلان ، فقد وفدوا من الشرق وانحدروا نحو أرمينية أغنى مناطق الرعي في البلاد ، وكانت قد ألحقت مؤخرا بالامبراطورية البيزنطية • وكان هذا تحديا للقسطنطينية ولآباء المدينة الذين كانوا منذ أمد بعيد آمنين في عزلتهم المرفهة ، وتحديا للامبراطور رومانوس الرابع الذى توجه شرقا عام ١٠٧١م مع الجيش البيزنطي لرد القوات المعتدية • ولاقى اليونانيون ذوو الدروع الثقيلة التي كانت تعطل حركتهم صعوبة كبيرة في ملاحقة الاتراك سريعي الحركة خفيفي اللباس على الرغم

من أن هذه الدروع كانت تضمن لهم التفوق عند الالتحام بالعدو . واشتبكوا أخيرا على حدود أرمينية في معركة ملاذكرد (مانزيكرت) وكان هذا بدء الاصطدام ، وقد اعتبرها التأريخ احدى معاركه الحاسمة . وكان اليونانيون آمنين بفضل دروعهم ، يقاتلون رماة الاتراك بشجاعة وهم صامدون في مواضعهم ، وكان من المحتمل أن يكتب النصر لبيزنطية لولا خيانة أحد اليونانيين وهو « اندرونيكوس » الذي عاد برجاله الى المعسكر بدلا من قيادتهم لنجدة المحاربين في جبهة القتال الامامية الذين كانوا في موقف محرج كما طلبت الاوامر الصادرة اليه. واستمر جنود الجبهة الامامية يقاتلون دون معونة بالنظر لعمل « اندرونيكوس » هذا الى أن سقط آخر جندي منهم . ولما انتهت المعركة أخيرا سحب الامبراطور رومانوس من تحت جواده النافق وحمل بنشوة الى خيمة السلطان التركي . وهناك دليلا على النصر وطأ ألب أرسلان بقدمه عنق عدوه المغلوب . وكانت هذه بداية النهاية .

وأخذت مدن الامبراطورية البيزنطية الغنية تتساقط الواحدة تلو الاخرى أمام الاتراك السلاجقة الذين بدوا وكأنهم لا يغلبون . واستمروا طيلة السنوات العشر التالية لذلك يشقون طريقهم بالنار عبر آسية الصغرى، وتحولت الاراضي المزروعة التي كانت تمد الامبراطورية بالطعام منذ مئات السنين الى مراع ، ووقع الفلاحون الذين كانوا يؤلفون العمود الفقري للجيش الامبراطوري في قبضة العدو . وفي السنوات العشر التي تلتها اندفع السلجوقيون أكثر وازداد اندفاعهم في السنوات العشر التي أعقبتها . واستمروا على الاندفاع في جميع أنحاء الامبراطورية البيزنطية خلال فترة تنوف على مائة عام ، ولكنهم لم يبلغوا قط القوة التي تؤهلهم لمهاجمة القسطنطينية التي ما زالت قوية ومحاطة بأسوارها التي لا تقتحم .

وخلال حقبة المئة عام هذه حكم كثير من الاباطرة الضعفاء القسطنطينية، فأضعفوا قوتها واستنزفوا مواردها ، ولكن كان يعقبهم عادة امبراطور قوي

يسترجع بعض ما أضاعوه من الهيبة ان لم يوفق فى استرجاع ما فقـــدوه
من أراض وتبقى الامبراطورية صامدة بثبات • وكان أحدهم الامبراطور
اليكسيوس كومنين ، الذي سنتحدث عنه ، وأعقبه بعد أربعمئة عام الامبراطور
قسطنطين باليولوغوس •



١٠

الحُروبُ الصَليبيّة

أدار العالم الغربي أنظاره الثقيلة الى الشرق تحديا للاتراك • فقد كانت أوربة موطن النبلاء غير المهذبين وامراء الاقطاع المتخاصمين ، فهي قارة الغابات والقلاع المنعزلة والمدن القليلة • لقد أخذت تستيقظ ببطء من سباتها الطويل في العصور المظلمة ، وبدأ نبلاء المناطق التي تعرف الآن بفرنسة وانكلترة واسبانية والمانية يشعرون بقوتهم • وأخذت الفروسية تلعب دورها ، وتطورت مدن التجارة كالبندقية وبيزا وجنوة الى جمهوريات وبدأت كنيسة روما تخرج من عزلتها • فالدين الذي بقي حيا طيلة أربعة قرون في الاديرة

والصوامع بصورة رئيسة بدأت تدب فيه حياة جديدة خارج هذا المحيط ، وشرع ببناء كاتدرائيات أوربة العظيمة في هـذه الفترة بتأثير الفن والحب اللذين أظهرهما الناس ، وقد كان هذا بداية بعث ديني أصيل •

كانت الحروب الصليبية التي استمرت فترة تقارب مئتي سنة أحـد المنافـذ الرئيسة التي تسربت منهـا طاقة أوربة الجـديدة حيث رفعت راية المسيحية ومشعلها عاليا في تلك الآونة • واذا استثنينا الحملة الصليبية الرابعة المفجعة فان الحروب الصليبية ليست بذات أهمية كبـيرة في قصتنا هـذه ، فقد احتكت بذلك العملاق الذهبي القسطنطينية ـ ومما لا يمكن انكاره أنها أخذت محلها في التأريخ صفحة طريفة من صفحاته ولكن أهميتها الكبرى لقصتنا هذه هي العداء المر المتزايد الذي أججته بين الشرق والغرب •

بدأت الحروب الصليبية في القرن الحادي عشر بعد أن اعتنق الاتراك الاسلام واستولى السلجوقيون على معظم مدن آسية الصغرى بعـــد معركة ملاذكرد الحاسمة • وكانت القسطنطينية في هذه الفترة ما تزال غنية جدا وقوية ، ولكن العدو كان يقترب منها بشكل لا يبعث على الارتياح ولم يكن يفصلها الان عن الاتراك المظفرين الا ساقية ماء • وكان الامبراطور آنذاك اليكسيوس كومنين ، وهو رجل اجتمعت فيه المقدرة والخبث ، ولكن موقفه كان محرجا وكان بحاجة الى معونة •

وذات يوم ، وكأنمـا كان ذلك استجابة لدعائه ، دخــل الى بــلاط الامبراطور رجل بسيط المظهر وكان هذا بطرس الناسك • وقد جاء بطرس من أوربة قاصدا الحج الى الاراضي المقدسة كما يفعل كثير من الاتقياء وكان قد زار بيت المقدس وآلمه كثيرا أن يرى المسيحيين يعيشون تحت حكم من كان يراهم كفرة • ثم عاد في طريقه مارا بالقسطنطينية ، المدينة العظيمة ، وقاده جهله الفاضح الى حضرة الامبراطور الجبار فجاء يروى ما رآه •

شعر الامبراطور اليكسيوس بقوة هذا المتعصب ـ رغم سذاجته ـ فزاد

في شعوره المتأجج بمعلوماته المرعبة عن قسوة الكفار ووقاحتهم • وأوجع هذا بطرس فصرخ «سأستنفر محاربي أوربة لمناصرتك في كفاحك يا مولاي» ورفع اليكسيوس يده ليسبغ عليه بركته الامبراطورية •

عاد بطرس الى أوربة وكانت عودته تعني سفرة تستغرق بضعة أشهر حيث كان الوقت والسفر يسيران ببطء في ذلك العصر • وعندما عاد بطرس الى أوربة ركب حمارا صغيرا وحمل صليبا ثقيلا مخترقا قرى فرنسة وايطالية محرضا الناس على القتال ، وكان يجمعهم حوله في الكنائس وعلى الطرق العامة وفي الاسواق ويخبرهم عما يلاقيه المسيحيون في الاراضي المقدسة من المهانة والالم • وكان حاسر الرأس حافي القدمين وقد كسا جسمه النحيف بلباس خشن وكان قليل الاكل يطيل الصلاة ويعيد ما يمنحه الناس من مال الى المحتاجين • وكان سامعوه يبكون حماسا • ولم يكن ليتوافر لاليكسيوس داعية أفضل منه • كما ان البابا نفسه كان راضيا عن ذلك كل الرضى ، فكما كان اليونانيون بحاجة الى مساعدة من الغرب لدفع الاتراك عن حدودهم كذلك كان الغرب يحتاج الى الكثير من الشرق ، لا سيما وان البابا كان يرغب في أن يشهد اتحاد الكنيسة اليونانية الارثوذكسية بالكنيسة الرومانية ، ولذا قدم البابا لكل من يرغب في الذهاب الى القتال ضد الكفرة في الاراضي المقدسة تعهدا هو صك غفران لذنوبه السابقة •

وهكذا بدأت الحملة الصليبية الاولى ، وعلى رأس الموكب ركب بطرس الناسك حماره يرافقه آخران ، فعلى أحد جانبيه معزة وعلى الجانب الاخر وزة ، وكانت هذه تمثل الشبح المقدس • ووراء بطرس سار مذنبو العالم الغربي من الخارجين على القانون واللصوص وقطاع الطرق والقتلة والمجرمين الذين كانوا يرغبون في محو ذنوبهم والاستمتاع بسفرة مثيرة في الوقت نفسه ، وكان من ضمنهم أيضا الكثير من الرجال المؤمنين المتدينين الاتقياء •

وشقت هذه الكتلة التعيسة طريقها ـ عبر أوربة ـ نحو الشرق بعناء ،

وقد بلغ تعدادها ٦٠٫٠٠٠ من الرجال والنساء مات الكثير منهم على جانبي الطريق ، وحين وصلوا القسطنطينية أخيرا ـ وقد علتهم القذارة وأصابهم المرض وفتك بهم الموت ـ لم يبق منهم هناك أكثر من ٤٠٫٠٠٠ غازيا ، فقد مات أو قفل عائدا حوالي ٢٠٫٠٠٠ منهم . ونظر الامبراطور الى هذا الخليط بذهول . وكان همه الرئيس اخراجهم من المدينة بأسرع ما يمكن فنقلهم على الفور بالسفن عبر البوسفور الى آسية حيث كان الكفرة يحكمون . وعند وصول هذه الكتلة التي كان يسودها الهرج والمرج الى البر الاسيوي هاجمتها القطعات النشطة التي كان قد أعدها السلطان التركي الحاكم فأبادتها ابادة تامة . ويقال ان كل ما بقي منها كان كوما من العظام . وبقي بطرس نفسه في القسطنطينية وعاش ما تبقى من حياته فيها حيث كان ينظر اليه الجميع نظرتهم الى معتوه لا ضرر منه .

ولكن هذا كان مقدمة أولية للحروب الصليبية الحقيقية فان الحركة كانت قد بدأت وفي كل سنة تقريبا حين أخذت تفد جماعة جديدة من الحجاج المقاتلين في طريقها الى الارض المقدسة وكان بعضهم رجال دين ، والاخرون وهم الاكثرية مغامرون . وقد استمر لاجيال كثيرة تدفق هذا السيل من القوى الجديدة نحو الشرق في مد وجزر . وفي أعقاب الفوضى التي قادها بطرس،أي في عام ١٠٩٧ جاء قادة الحرب الاوربيون كل مع حاشيته، وكانت القوة التي استصحبوها معهم قوة حربية لا يستهان بها ، ولكن لحسن حظ اليونانيين كان النبلاء الجهلة من غابات أوربة الغربية كالاطفال أمام نفائس القسطنطينية وعظمة الامبراطور .

ورحب اليكسيوس كومنين بالغرباء في مدينته ، وبدا لهم بردائه القرمزي وسترته ذات القماش الذهبي رشيقا معتدا بنفسه ، وكانت قلنسوته ذات المقدم المرتفع مطرزة بالفراء والمجوهرات ، ولحيته حمراء كثة مجعدة .. وغردت الطيور الميكانيكية وارتفع عرشه ببطء في الهواء أمام أعين الزوار المذهلين . وظل النبلاء فاغري الفم أمام هذه الروعة ، وكانوا يعتقدون أنهم

في حضرة اله مقدس .

وكان على اليكسيوس التصرف بحذر ، فقد كان يكره هؤلاء المتوحشين من الغرب ووجوههم الحليقة وروائح جيادهم النتنة ولا يثق بهم . ولكنه في الوقت نفسه كان يحتاج الى مساعدتهم ضد الاتراك الخطرين ولهـذا لجأ الى الخداع والمديح والرشوة والوعود ، وأخيرا وفق الى اخراج هذه الكتلة من المحاربين أيضا الى الساحل الاسيوي من البوسفور وفي هذه المرة كانت العملية ذات فائدة ، ولم تكن هناك مذبحة ، فقد تراجع الاتراك أمام زحف الصليبيين ، ومن ورائهـم كان يتقدم اليكسيوس مستعدا للمطالبـة بحصته من الغنائم . وبهذه الطريقة ودون خسارة أي من محاربيه استرجع الكثير من الاراضي التي كانت تعتبر قد ضاعت ولا أمل في استعادتهـا من الاتراك .

ومنذ ذلك الوقت ولمدة مئتي سنة استمرت الاندفاعات الصليبية متتابعة كحركة واحدة مستمرة من الغرب الى الشرق ، ثم تعود منه ثانية . وقـد استولت احدى الحملات الصليبية على معظم آسية الصغرى وبيت المقدس ، ولكن لم يستطع الصليبيون الاحتفاظ بها ، فقد كان هؤلاء المحاربون الاوربيون الذين أكسبهم الطقس الاوربي البارد الرطب خشونة قد أضعفتهم الحيـاة الشرقية السهلة والنسـاء المجهولات المحجبات والاطعمـة السـورية المتبلة والطقس الحار المضني . وببطء تدريجي فقدوا كل قابلياتهم على القتـال وانهارت معنوياتهم . وكان الاتراك[٢٤] ينتظرون الفرصة الملائمة . ومر ثلاثة أرباع القرن ، ثم ظهر صلاح الدين أعظم السلاطين . وفي عام **١١٨٧** استرجع بيت المقدس وبدأت المدن الاخرى تسقط في يده بالتعاقب ، وسرعان

---

(٢٤) نعتقد ان المؤلفة تعني لفظة (الاتراك) : المسلمين . فقد كان العـالم الاسـلامي بكافـة قومياته يقاتل لصد العدوان الصليبي . وكانت الجيوش الاسلامية تضم بالاضافة الى الاتراك العرب والاكراد وغيرهم .

ما احتل الشرق كله من دجلة الى النيل واستقر مرة أخرى تحت الحكم الاسلامي .

كان العالم الغربي في هذه الفترة قد أضاع الروح الحقيقية الدافعة للحروب الصليبية فالبابوية لم تعد تسهم فيها ، وقد تركت كليا في أيدي الساسة والتجار ، وكان اسم الجهاد الصليبي ستارا لتغطية الجشع المادي . وكان الصليبيون الان يستهدفون المتاجرة مع الكفرة أكثر مما يحاولون القضاء عليهم .

١١

كارثة الحملة الصليبية الرابعة

للحملة الصليبية الرابعة أهمية كبرى في قصة القسطنطينية . فالاسباب المباشرة التي لها علاقة واضحة بهـا مرتبـكة الى درجة ما ، الا ان النتيجـة النهائية واضحة لا لبس فيها .

ففي سـنة ١٢٠٢ كان الامبراطور الحاكم في القسطنطينية اسـحاق أنجيلوس قد أقصي وحل محله امبراطور مغتصب ، ولذا قام ابن اسحاق أنجيلوس بجولة في أوربة لاعادة أبيه الى عرشه يستحث بها اللاتين لمساعدة والده ، وقد وعد بتقديم كمية كبيرة من المال اذا تمت اعادة والده الى مركزه، ووعد كذلك باعداد جيش لمساعدة الاوربيين في اعادة فتح الاراضي المقدسة، وبقوة دائمة للاحتفاظ بهـا . وبادر المحاربون من النبلاء والاقطاعيين الى اغتنام الفرصة لمغامرة جديدة . فان داندولو أمير البندقية المخادع الذي بلغ التسعين من عمره فرك يديه ابتهاجا بذلك . وكان البنادقة بحاجة الى موانىء جديدة باستمرار في الشرق لتجارتهم ، وكانت هذه فرصتهم .

وكان على الصليبيين استعمال سفن البنادقة لنقلهم عبر البحر وقام البحارة البنادقة بتدبير نقلهم وانزالهم في قلب الامبراطورية البيزنطية مباشرة لا في الاراضي المقدسة كما كان يرغب كثير من الصليبيين •

ووصل اسطول البنادقة حاملا أربعين ألف محارب كاملي العدة الى أبواب مدينة القسطنطينية وقاموا بخلع الامبراطور الجديد ، وأخرجوا من السجن الشيخ اسحاق انجيلوس الذي كان قد فقد بصره في السجن وأعادوه الى عرشه ثم انتظروا الجائزة الموعودة • ودام انتظارهم خمسة أشهر ولم يتمكن ابن اسحاق من تأمين المال أو الرجال ، ولكن الغربيين بقوا واستمروا على المطالبة ومكثوا داخل الاسوار وخارجها وضاق اليونانيون ، وهم نهب القلق والانزعاج في داخل أسوارهم ، ذرعا بهؤلاء اللاتينيين المعربدين شريبي الخمر • وأخذت العلاقات تتطور الى كره متبادل وفقدان الثقة بين البحارة والجنود العاطلين والمعربدين واليونانيين المنزعجين جدا حتى وصلت حدا لا يطاق ، ثم بلغت الذروة عندما أراد اسحاق وولده المنكود وقد أحرجهما عدم تيسر المال والرجال اللازمين للتخلص من حلفائهم غير المرغوب فيهم أن يؤمنا ذلك بمحاولة السيطرة على أموال الكنيسة فكان هذا آخر ما يتحمله الشعب اليوناني ، فاندفعوا هائجين يصبون سخطهم على اللاتين فقتلوا كل غربي كان في داخل الاسوار وقتلوا كذلك اسحاق وخنقوا ولده ونصبوا أحد ضباط الجيش امبراطورا •

وقد قام الصليبيون مستفيدين من الفوضى ، وباغراء داندولو بمهاجمة المدينة التي اختل فيها النظام • وصمدت الاسوار البرية واستطاع أهل القسطنطينية صد المهاجمين الى أن تمكنت سفن البنادقة من العثور على موقع تحت السور البحري يمكّن من اعتلاء الاسوار • وبهذه الطريقة أمكن ادخال أفراد قليلين استطاعوا فتح الابواب فتدفق الجنود من خارج الاسوار الى الداخل •

وهرب الضابط ، الامبراطور الجديد ، وكذلك هرب ثلثا سكان المدينة،

وكان هذا يوم ١٢ نيسان (ابريل) ١٢٠٤ واستباح اللاتينيون المدينة طيلة ثلاثة أيام ودمرت القسطنطينية الجبارة وسلبت • واستهجن البابا اينوسنت الثالث ـ وهو على عرشه في ايطالية ـ ما قام به أتباعه الذين خرجوا على محاولات توطيد الصداقة بين الشرق والغرب ، وقال البابا : « ان الاتحاد أصبح الان مستحيلا الى الابد » • وقد نسي الصليبيون موضوع الارض المقدسة وقسمهم المقدس منذ أمد ، فنهبوا الكنائس وربطوا خيولهم فى سانتا صوفيا وجعلوا من الاديرة مسارح للرذائل ، وعذبوا القسس • ودمر اللاتينيون كل ما كان جميلا ، فاقتلعوا التماثيل اليونانية القديمة من قواعدها ، وأحرقوا مكتبات كاملة أوقدوا بها نيران المعسكرات ، وانتزعوا التزيينات من قبور الاباطرة • وفي الملعب حطم الصليبيون الرخام بفؤوسهم الحربية ومطارقهم وصهروا القطع الفنية البرنزية الرائعة لسك نقود نحاسية • وفي هذه الاونة نقلت الخيول الاربعة الشهيرة الى البندقية •

وقاد المنتصرون عجلات مؤونتهم الى قصر بلاشيرناي ، وهذا هو السبب الذي جعل الغرفة التي صادفنا فيها الامبراطور قسطنطين باليو لوغوس تفقد نفائسها وتبدو أرضها مهشمة وجدرانها عارية ، فقد أشعل بها الصليبيون نارا استمرت ثمانية أيام بلياليها شملت منطقة قطرها ميلان ونصف وبهذا الاسلوب تم تسديد ضربة قاضية الى أجمل مدينة في العالم •

ولم يدمر الاتراك في أي وقت احتلوا فيه مدينة ، لا قبل هذا الحادث ولا بعده بالشكل الذي دمر به هؤلاء الفوضويون من الفرنسيين والايطاليين والفلمنكيين القسطنطينية المسيحية • وقد بقي أثر هذه الايام الثلاثة التي استبيحت بها المدينة بوحشية لاتعرف الرحمةفي ذاكرة الشرق الارثوذوكسي الى الابد •

وبعد أربعين عاما أعاد اليونانيون تنظيم صفوفهم ، وبمعونة الجنويين الذين كان لهم حساب يودون تسويته مع خصومهم البنادقة نجح اليونانيون باستعادة المدن القريبة في آسيا الصغرى وفي سنة ١٢٦١ تمكنوا بقيادة

الامبراطور ميخائيل الثامن من العودة الى القسطنطينية • ولكن لم تكن هناك طريقة يستطيعون بها اعادة الامبراطورية الى سالف مجدها فقد كانت القسطنطينية المنهكة التي أفقرها النهب أشبه ما تكون بامرأة عجوز ذهب شبابها الى الابد • وبقي البنادقة الذين انتزعوا سفنها وتجارتها وسلبوا صناعتها قريبين منها في الجزر المجاورة وبقي بعضهم فى المدينة نفسها • أما الجنويّون الذين ساعدوا اليونانيين على استعادة مدينتهم فقد استقروا في (غلاطه) القريبة عبر القرن الذهبي وبنوا لهم مدينة خاصة بهم هناك • لقد فقدت القسطنطينية روعتها الى الابد •

كانت هذه الحادثة خاتمة الحروب الصليبية في ذلك الجزء من العالم • وبالنتيجة خسر الغرب آسية كلها ، ولولا آثار الدمار التي لا يمكن اصلاحها لامكن القول ان الحروب الصليبية لم تحدث قط • وبعد قرنين ونصف القرن لم تتمكن أوربة من الاحتفاظ بشبر واحد من الارض التي قاتلت للحصول عليها ، وبالاضافة الى ذلك فان الحركة الى الشرق التي كانت قد بدأت منذ القرن الحادي عشر مع أول حرب صليبية كانت بداية انهيار الامبراطورية المسيحية الشرقية وقد كادت الحملة الصليبية الرابعة تقضي عليها قضاء مبرما • وقد كان الساسة المغامرون الذين ضعضعوا الامبراطورية سنة ١٢٠٤ مسؤولين بصورة مباشرة عن سقوط القسطنطينية بعد مئتي عام وعن القضاء على المسيحية في الشرق •



١٢

ظهور العدو الاخير

(كان من المحتمل لو اتحد اللاتينيون واليونانيون أن ينجحوا في دحر المسلمين • ولكن الثقة بين الشرق والغرب لم تكن أكثر من الثقة في العدو • وحين فات الاوان بدأت تظهر قوة جديدة في آسية زادت في قوى المسلمين التي كانت قد بدأت بالضعف) •

وحين كان جنكيز خان سوط العذاب المسلط على آسية يصول ويجول كان اللاتينيون يحتلون القسطنطينية • لقد بدأ المغول زحفهم المرعب الى الغرب عبر سهول آسية الى آسية الصغرى ، ودفع جنكيز خان حشوده من الفرسان





ولا يزال العالم مشدوها من قصص الرعب والوحشية التي قاموا بها • ولكن ما يهمنا هنا هو تأثير جنكيز خان على قبيلة واحدة فقط • فقد كان الصراع الان بين آسيوي وآسيوي اخر •

وجمع المغول ، كما تتجمع كرة جليد جبارة ، حشودا من قبيلة اثر أخرى في زحفهم نحو الغرب ضامين اليهم الرجال الاشداء من محاربي القبائل لتعزيز قواهم المقاتلة ، أما الاخرون فكانوا يؤخذون أرقاء • ولكن كانت تسبقهم دوما ـ ودون أن تندحر ـ قبيلةواحدة سريعة الحركة لم يستطع أحد اخضاعها ، وكانت امة واحدة في حالة حركة طلبا للخلاص وتضم الجميع من النساء والاطفال والشيوخ والرقيق والماشية ويحمي الجميع كتلة من المحاربين • وكان الاتراك هم هذه القبيلة والمغول في أعقابهم • وقد عبر الاتراك الفرات متجهين الى الغرب وكانت هذه هي الطليعة التي انبثقت عنها القوة القهارة التي عرفت بالاتراك العثمانيين وقد اكتسبوا هـذا الاسم من زعيمهم عثمان ، وهو زعيم محارب تتوقد النـار في عينيه ، وله لحية طويلة وهو وسيم في رجولته ، وأهل لان يدعى أبا قومه • وكان يركب جواده عبر السهول ورداؤه الصوف مربوط بارتخاء عبر كتفيه دون أن يدخـل ذراعيه فيه كي تبقيا طليقتين وهو يرتدي سرواله الفضـفاض حافيـا وكان يبدو بهذا الشكل نموذجا مثاليا للتركي المحارب •

وقد رأى عثمان ذات مرة حلما شاهد فيه شجرة عظيمة تظلل قسما كبيرا من العالم وتحتها أربع سلاسل من الجبال ومن جذورها انبثقت أربعة أنهار عظيمة وهى دجلة والفرات والدانوب والنيل وعلى الانهار والجبـال سمع عثمان صوت المؤذن مناديا للصلاة ، وكان هذا يعني له أن جميع هذه البلاد ستصبح يوما ما مسلمة وعندما هبت ريح قوية ـ وكان هذا في حلمه أيضا ـ رأى عثمان أوراق الشجرة كلها تتجه نحو القسطنطينية •

ولقب عثمان نفسه بالسلطان عام ١٣٠٠ واتخذ ذنب الجواد راية حرب

له ولم يكن ليحمل هذه الراية الا قائد عسكرى ذو رتبة كبيرة (باشا) ٠ وسواء أكان عثمان قد شاهد هذا الحلم حقا أم أن ذلك أسطورة موضوعة فان الواقع أنه كان رأس سلالة من السلاطين الاتراك حكمت تلك البلاد وأخضعتها للدين الاسلامي منذ عهده حتى يومنا الحاضر ٠

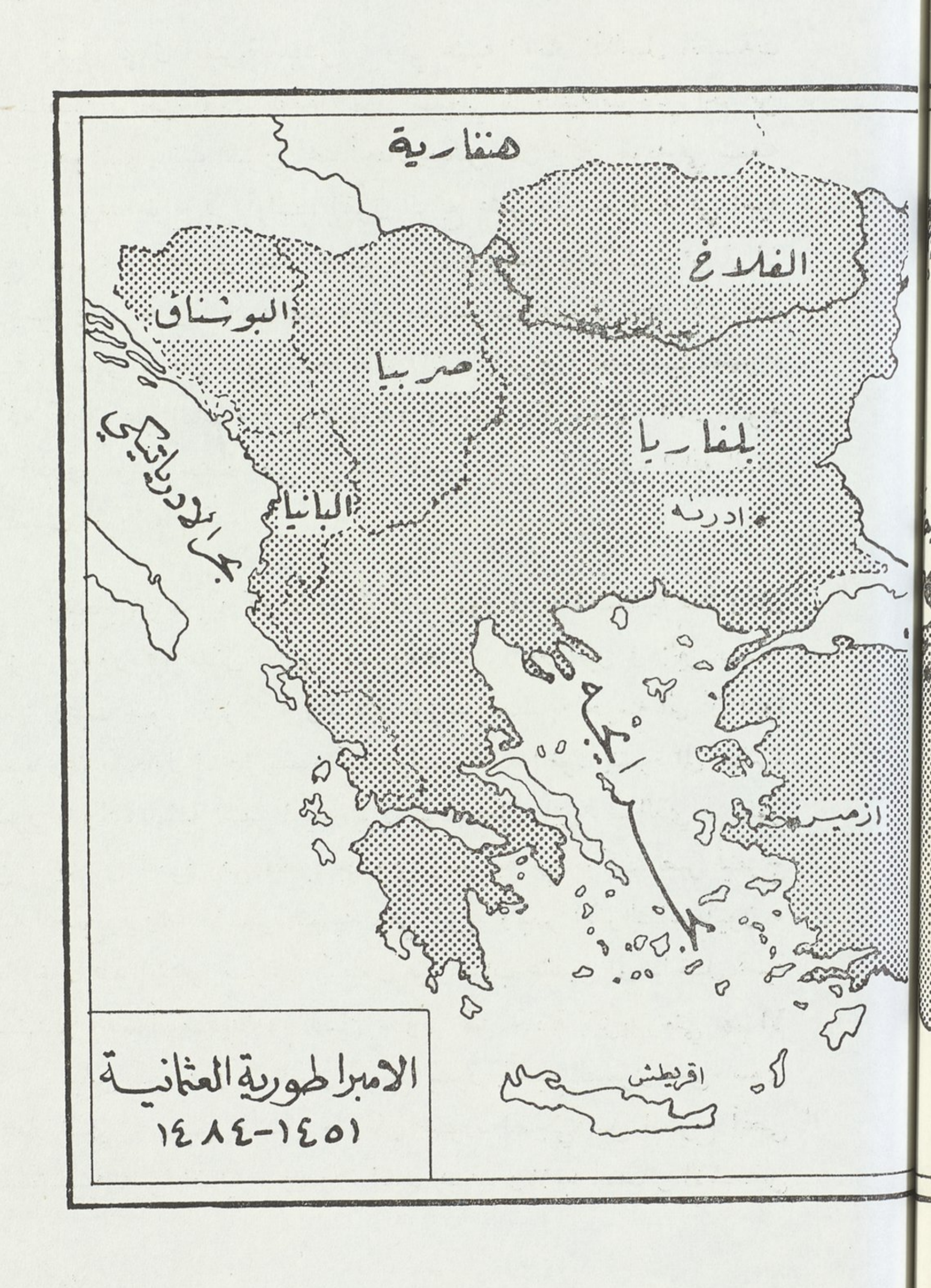
وفي عام ١٣٢٦ استولى الاتراك العثمانيون على بورصة وهي أكبر مدينة مسيحية فى آسية الصغرى ومنها أخذوا يغيرون على مدينة اثر أخرى الى أن أصبح كل الساحل الآسيوي لبحر مرمرة والبوسفور تركياً ٠ ولكن آسية لم تكن كافية فقد عبر العثمانيون رأس هيلاس وشقوا طريقهم حربا نحو الشمال خلال المنطقة المعروفة حاليا باسم البلقان وضموا الى امبراطوريتهم أدرنة (أدريان بول) التي كانت المدينة الثانية بعد القسطنطينية في الامبراطورية البيزنطية وأصبحت العاصمة الاوربية للعثمانيين ٠

لقد كانت الامبراطورية العثمانية تطبق الآن على القسطنطينية في الشمال والجنوب وحاول اليونانيون في غمرة يأسهم المساومة فاقترحوا زواج أبناء السلاطين بنات الاباطرة وتطورت الامور بحيث تآمر في وقت ما ابن الامبراطور مع ابن السلطان لخلع أبويهما من عرشيهما ولكن السلطان علم بالمؤامرة فأعدم ابنه وسمل الامبراطور عيني ولده ٠ ولكن مضى وقت المساومة ، وعلى الرغم من أنه لم تكن هناك حرب معلنة بين الدولتين الا أنه كان هناك تحفز قوي متكامل ٠ وبعد كل انتصار تركي كان أهل القسطنطينية يصغون بهلع متوقعين سماع حوافر جياد الاتراك المرعبة التي طرقت أسماعهم أخيرا في سنة ١٤٠٢ ٠

وكان سلطان العثمانيين حينئذ بايزيد المعروف بلقب (يلدرم) أي الصاعقة ، وذلك للسرعة القاتلة التي كان يسدد بها ضرباته ٠ وبعد عشر سنوات من المعارك المظفرة أخذ بايزيد يضع الخطط للهجوم على المدينة الملكة ٠ وحاول الامبراطور شراءه بدفع الجزية وبالسماح له بانشاء جامع في مدينته الارثوذكسية الكاثوليكية المقدسة ولكن بايزيد ضحك من ذلك ٠



بحر آزوف
البحر الاسود
الامبراطورية البيزنط
القسطنطينيه
سكوتاري
بروسه
قبرص



الامبراطورية العثمانية
١٤٥١-١٤٨٤

وكان هذا قبل خمسين سنة فقط من بدء قصتنا هذه وكان فرانزا المتقدم في السن يتذكرها منذ طفولته ويتذكر الخوف في المدينة وقرب الكارثة المحتمة .

وقبيل نزول الضربة المباشرة ، وفي عشية الدمار الكامل أنقذت القسطنطينية بمعجزة ، ولم ينقذها العون المسيحي بل طاغية متوحش اخر من الشرق هو تيمور لنك التتري أحد أحفاد جنكيز خان وكان يفوقه في سمعته المرعبة . وقد خرج في أواسط القرن الرابع عشر من سمرقند في آسية لفتح العالم ، واندفع الى كل جانب يحرق ويذبح ويسترق ، في ايران وروسية وسيبرية والصين والهند ، وبدأت أسراب الفرسان تتجه الان نحو آسية الصغرى . كان تيمور شيخا أشيب الشعر أعرج ، محدودب الظهر ، ولكنه كان يرعب العالم . وكان شعاره (لا أسف ولا ندم) وكانت قسوته في الذروة من الوحشية حتى في ذلك الزمن الذي كانت فيه اراقة الدماء والتعذيب أمورا مألوفة .

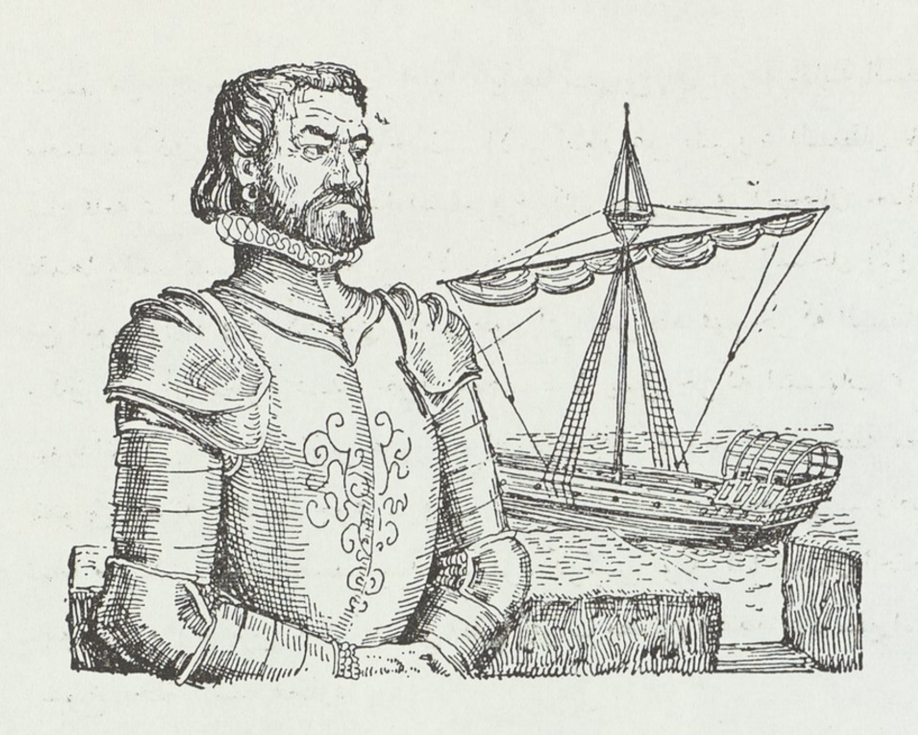
وتبجح بايزيد بانه كان قادرا على قتال تيمور ، وقد اشتبك به فعلا وكان لبايزيد ١٢٠٫٠٠٠ مقاتل مقابل ٣٠٠٫٠٠٠ لتيمور مع اثنين وثلاثين فيلا هنديا أرعبت خيول الاتراك . وقد قاتل بايزيد يحيط به حرسه الى أن قتلوا جميعا وعندما حاول النجاة بنفسه كبا جواده واقتاده المغول بنشوة الى حضرة تيمور . ولمدة ثمانية أشهر اقتيد البرق ـ السلطان بايزيد ـ الذي لم يقهر من مدينة الى أخرى فى قفص حديدي وسير به في موكب نصر ليتفرج عليه الجميع . وبعد الاشهر الثمانية توفي بايزيد وتبعثر الاتراك العثمانيون . أما المغول فقد اندفعوا مسرعين كقطعان من الذئاب عائدين الى داخل آسية مستهدفين تدميرا جديدا في الصين . ولم تكن حادثة بايزيد تعني لهم الا غارة بمقياس كبير . وكالصليبيين لم يقم تيمور بآسية الصغرى بشيء سوى الدمار الذي لم يسبق له مثيل . ولكن ظهوره المفاجيء على المسرح أعطى القسطنطينية عمرا اضافيا . وبدورة القدر هذه وتلاعبه بمصائر الاشخاص

لم تسقط المدينة بيد بايزيد بل بقيت صامدة ولكنهـا ترتعـد خوفا داخـل أسـوارها •

وكان الاتراك العثمانيون انذاك قد دحروا ، ولكن كيف أفاد المسيحيون من عطية القدر هذه ؟ فبينما كان تيمور ما يزال مشتبكا ببايزيد قام الجنويّون فى غلاطه ـ الجانب الايسر من القسطنطينية ـ بتقديم المعونة بنقل القطعات التركية المندحرة من آسية الصغرى حيث كانوا محصورين الى البر الاوربي وقد قبض الجنويّون ثمنا عاليا مقابل ذلك • وقال البنادقة الذين لا يرتضون تفوق أحد عليهم فيما يعود بالكسب بمنافستهم في العمل نفسه فنقلوا المزيد من الاتراك ولا ينكر كذلك قيام بعض اليونانيين من أهالي القسطنطينية من عبدة المال بنفس هذا العمل • وبهذه الطريقة أمكن انقاذ الكثير من الجيش ومن هذا الحطام الباقي ظهر سلطان جديد وهو محمد الاول الذي تمـكن بفكره المتزن واعتداله من اعادة معنويات الاتراك • وبهدوء واتقان أعـاد تنظيم الجيش وأعاد الثقة الى قومه وفي خلال أربعين سنة تمكن هو ومن خلفه من اعادة بناء الامة العثمانية واسترجعوا معظم الاراضي التي أضاعوها في آسية الصغرى وتهيأوا ثانية باشراف حفيد السلطان محمد الجبار للهجوم على القسطنطينية•وكان هذا الحفيد السلطان محمد الثاني ، وهو طموح صارم ذو دهاء ومكر ـ وهو بالاضافة الى ذلك أحد أعاظم القادة العسـكريين في العالم بحيث يمكن وضعه مع نابليون والاسكندر الكبير في مستوى واحد • وكان هذا هو الرجل الذي جاء من عنده خليل باشا عندما استقبله الامبراطور قسطنطين باليو لوغوس • وكان السلطان الذي سبق محمـد الثاني ، وهـو والده مراد ، صديقا لليونانيين لا بعاديهم ، لانه كان مشغولا بالقتال في البلقان وبناء أمته واصـلاح ما خربه تيمور ، ولم يـكن لديه وقت للقسطنطينية • ولكن محمد الثاني أخذ ينظر جنوبا من عاصمته في أدرنة وفي عينيه بريق غريب وبعد تسلمه السلطة بسنة بدأ العمل في (روم ايلي حصار) ، وهي قلعة على البوسفور ، وعلى بعد ستة أميال شمالي القسطنطينية ، المدينة التي

يحلم بفتحها جميع المسلمين ، فقد تناقلوا جيلا عن جيل (ان الملة التي تستولي على القسطنطينية تفوز بالجنة) •

لقد حاول المسلمون ، العرب الاوائل الاستيلاء على القسطنطينية ، وحاول ذلك الاتراك السلاجقة وقد نجح بذلك اللاتينيون الى حد ما • والآن ••



١٣

اليونانيون يستعدّون

لم يزر الكرى جفني الامبراطور قسطنطين الا لماما في ليلة زيارة خليل باشا • وعند الفجر ركع مرة أخرى أمام أيقونته ، ومن ثم أجال الطرف ثانية في المدينة التي كانت تمتد الى الاسفل منه • وكان الضوء الشاحب قد أظهر قبة سانتا صوفيا وكأنها ليّنة ، أما مياه خليج القرن الذهبي فقد بدت وكأنها معدنية في جمودها • وكان الوقت مبكرا عندما استدعى شخصين من حكومته للمذاكرة وكانا ـ بعد فرانزا ـ أكثر من يثق بهم •

وأصدر تعليماته الرسمية اليهما وهو منتصب فوق عرشه مستقيم الظهر مرفوع الرأس ، فكان عليهما أن يرفعا راية المدينة ويرتديا أنفس ما

لديهما من أردية القطيفة والفراء وأن يذهبا سفيرين الى أدرنة لمقابلة السلطان محمد ، وكان عليهما الاحتجاج باسم الامبراطور على مشروع السلطان للقيام ببناء قلعة ، اذ أن القيام بهـذا المشـروع كان يعني خرق السلطان لمعـاهدة عقدها والده نصت على عدم قيام الاتراك ببناء تحصينات على الساحل الاوربي من البوسفور . ولم يكن لدى الامبراطور أي لبس فقد فهم حركة السلطان . وكان يعلم أن مجرد عـدم خرق معاهـدة لا يعيق حركة الشـهاب ، وان تهديداته لا يمكن أن تؤثر على تلك القوة الدافعة . وقد كانت خطة محمد بتطويق المدينة واماتتها جوعا ـ وهي الخطوة الاولى من الحصار ـ واضحة تماما . ولكن كرامة القسطنطينية ومركزه كرئيس قومه كانا يتطلبان احتجاجا دبلوماسيا . ولم يكن لديه أمل في تلقي جواب مطمئن وعندما عاد سفيراه بعد اسبوع تحقق أسوأ مخاوفه .

فقد أبدى محمد عدم اكتراث وبـين بصورة قاطعـة أنه لم يخرق أية معاهدة وأنه رجل سلام ، وان ما كان يقوم به تتطلبه سلامة جيشه ، وانه لم يستـهدف به الحرب . ثم لمعت عينـاه وقال اذا كان الامبراطور يبحث عن المشاكل فذلك أمر آخر ، وانه مستعد . وبالاضافة لذلك ـ اذا عاد هذان السفيران بأية رسائل أخرى فانه سيسلخ جلديهما حيين . ـ وكان هذا ما قاله للسفيرين النبيلين اليونانيين .

وشرع ببناء قلعة روم ايلي حصار الواقعة على مسافة ستة أميال صعودا في البوسفور في شهر اذار وتمت في شهر اب ، أي استغرقت أكثر قليلا من خمسة أشهر ، وكانت انجازا رائعا في البناء أشرف عليه محمد شخصيا . ولم يكن يسمح لاي شيء بالوقوف في طريق طموحه ، وكما أخبر خليل باشا الامبراطور ، كان قد جلب ألف استاذ بنّاء من آسية وخصص لكل منهم أربعة بنائين وعددا لا يحصى من الفعلة الاعتياديين . وكان يؤشر مستوى العمل الذي يجب اكماله يوميا ، والويل للعامل الذي لا يصل حده . وقد أدام محمد رقابة كاملة ، وفي كل ليلة كان يفحص العمل واذا كان كاملا توزع العطايا ، وان

نقص فهناك السوط • وكانت القلعة مثلثة ويبلغ سمك جدرانها الحجرية اثنين وعشرين قدما وكانت الابراج المبنية في الزوايا الثلاث بسمك ثلاثين قدما • ولا تزال الان بعد مرور خمسمئة عام قائمة في عطفة نهر ، وربما بقيت خمسمئة سنة اخرى • ولتأمين المواد كان محمد يرسل جنوده الى القرى القريبة لتخريب الاعمدة الرخامية والمذابح من الكنائس ، وعندما كان اليونانيون يقاومون هذه الفظائع كانوا يقتلون فورا دون أن يسمح لذلك بايقاف العمل • وعندما كان جنوده يحتاجون الى المراعي لخيولهم وبغالهم كانوا يستغلون حقول الفلاحين ومزارعهم • وعندما كان الفلاحون يرون خيول الاتراك وبغالهم تسرح في حقول القمح الناضجة كانوا يهاجمون الاتراك بالطبع فينتج عن ذلك قتال دام يقتل فيه أفراد من الطرفين • وكعقاب لذلك كان محمد يفني القرية بكاملها •

وأدمت قلب الامبراطور قسطنطين هذه المظالم التي كانت ترتكب ضد رعاياه الابرياء• وقد يبدو الرجل ضعيفا اذا كان رؤوفا متعقلا ، وكان قسطنطين كذلك ، الا أنه لم يكن ضعيفا ، فقد كان ثابت القصد شجاعا في التنفيذ وقد نفد صبره وبلغ أقصى حدود التحمل ، وأعلن أنه سيرسل جندا لتدمير هذه القلعة وبنائيها الكفرة ، وكانت في صوته رنة غضب واشمئزاز صادقين • ولكن الراهب غناديوس الذي كان يتكلم باسم الكنيسة تضرع اليه أن لا يتسبب في الحرب ، ورجاه ممثلو الشعب أن لا يستفز الاتراك المعادين • وسكت قسطنطين على مضض • وعندما تم بناء القلعة أرسل رسالته الاخيرة الى محمد قائلا فيها : « بما أن الايمان والتعهدات أو الحسنى لم تنجح فى الحفاظ على السلام ، وبما أنك مستمر في حربك الشريرة ، فاني أضع ثقتي في الله وحده ، فاذا شاء أن يلين قلبك فان هذا التبدل المفرح سيسعدني ، واذا شاء أن يعطيك هذه المدينة فاني سأقبل دون شكوى ارادته المقدسة • ولكن حتى يحكم الله بيننا فان من واجبي أن أحيا وأموت دفاعا عن قومي » •

وأصدر أوامره بغلق الابواب ، واعتبارا من ذلك اليوم لم يسمح لاي

تركي بدخول المدينة • واستغل محمد هذا القرار سببا وأعلن الحرب رسميا• ولم يعد هناك مجال للخداع المتبادل ، وحلت نهاية الترضية • ولكن الحرب الباردة استمرت ، واستمر العاهلان طوال الشتاء يستعدان بهمة للصراع المقبل •

وكان الامبراطور في مدينة متعبة قديمة وعلى رأس قوم جعلتهم قرون السلام والامن الطويلة غير متعودين على الحرب ولم يعودوا كما كانوا سابقا أهل سفاسف وترف • لقد ذهب الترف والبحث عن المتعة ، واختفى كل ذلك مع الحملة الصليبية الرابعة ، ولكنهم ما زالوا يحتفظون بالقليل من الابداع • وكانوا أهل جد ومثابرة وقليل من الابتكار ، أناس تعودوا على دفع ضرائبهم العالية وارسال أولادهم للخدمة في الجيش وعلى انجاز أعمالهم والاستمتاع بقنينة من شراب الكرم فى حانة خمر • وبما انهم عاشوا طوال أجيال عديدة تحت حكم مطلق دون أن يكون لهم رأي في الامور فانهم لم يعتادوا السياسة ، كما لم يعتادوا الحرب • ولم يكن المرء ليتوقع الابداع والبطولات من هؤلاء المواطنين • وكان القسم الاكبر من الرجال المقاتلين في السابق يؤخذ من الارياف والان بعد أن استولى الاتراك على آسية الصغرى قطع المصدر الذي كان الامبراطور يستمد منه خيرة رجاله • أما ضباطه فقد كان مصدرهم الرئيس النبلاء ، وكانوا قد حصلوا على تدريب قليل جدا وكانوا هم أيضا بدورهم قانعين متنعمين ، وقد نضبت طاقاتهم منذ أمد ولم تكن لتعوزهم الشجاعة ، ولكنهم لم يتمتعوا بأي مؤهلات خاصة ، ولم يكونوا قادرين على وضع خطط الحرب أو على الحصول على معونة خارجية • وكان أهم ما يشغل أهالي القسطنطينية ـ ويستوي بذلك النبلاء والعامة ـ هو الدين • ومن السخرية أن يضعف ذلك قابلياتهم للقتال • وقد كانت الكنيسة والرهبان كالاخرين يشعرون بالطمأنينة ، وكانوا عاطلين منذ أمد وقد حكموا عهدا طويلا • وفى الوقت الذي كان فيه النبلاء يعتقدون بعدم جدوى المقاومة ، كان رجال الدين يتوقعون حدوث معجزة • وبقي عبء الحرب بصورة كاملة

على كاهل قسطنطين ، وطوال الاشهر الستة التالية لذلك كان يقوم في كل ساعة من ساعات يقظته بكل ما في وسعه لاعداد مدينته المتشعبة وقومه المتراخين للكفاح المقبل ، وأصبح قائدهم في التهيؤ وفي القتال ، وكان مثالا ملهما للاخرين في ايمانه وتضحيته . ولسوء حظ قسطنطين كان أول اجراء عام في التهيؤ ، وهو منبعث من الحاجة الملحة ، سببا في خلق تذمر عام . ففي ١٢ (ديسمبر) كانون أول وبعد أشهر قليلة من اكمال بناء أسوار قلعة روم ايلي حصار قام الامبراطور باجراء طقوس دينية كلفته مساندة الكثير من شعبه ، فقد دعي كاردينال الرومان الكاثوليك (الكاردينال ايزيدور) لاقامة الصلاة في كنيسة القديسة صوفيا ، وتمت الصلاة بموجب الطقوس المتبعة عند الرومان الكاثوليك لا طقوس الكنيسة اليونانية الكاثوليكية ، وقد حضر الامبراطور وتلقى البركة من يد اللاتين . وبما أن الامبراطور قسطنطين كان مؤمنا تابعا للكنيسة اليونانية الارثودكسية كما كان كثيرون غيره في القسطنطينية ، فقد بدا هذا العمل استهانة بالمعتقدات الدينية التي كان يخلص لها هو وشعبه . وقد تخيل التمثال الجبار للسيد المسيح وهو يعبس له من على قبته الذهبية ولكنه ضحى بعواطفه الشخصية في سبيل ما كان يعتقد أنه في صالح قومه .

ولكن ماذا كسب نتيجة ذلك ؟

ولنبدأ القول بأن هذا عمل دبلوماسي . فمنذ ستة أشهر ، ومنذ أول انذار من خليل باشا شرع قسطنطين في وضع خطته للحرب . ولما كانت قواته المقاتلة بهذا القدر من القلة ، قدر أن عليه الحصول على عون خارجي . وللحصول على هذه المساعدة استنجد بالغرب ، أي بالكنيسة الرومانية الكاثوليكية . ولذا فكان من الواجب احلال الصلح بين الكنيستين المسيحيتين الكاثوليكيتين الكبيرتين اذا أريد دحر العدو ، ولذا أرسل قسطنطين سفيرين الى الفاتيكان . وطوال أربعمئة سنة حاول البابوات في روما توحيد الكنيستين . والان وللمرة الاولى يقدم اليهم امبراطور يوناني هذا الاتحاد مع شرط واحد،

هو أن يقدم اليه مقابل ذلك قوة مقاتلة تعينه في دحر الاتراك ٠

ونظر رجال الفاتيكان الى السفيرين ببرود ، فقد كان شعور عـدم الثقة القـديم باليونانيين لا يزال موجودا ٠ ولكنهم ارتأوا أنه لا ضرر من ارسال ممثل ٠ وبهذه الصورة وصل خلال الستة الاشهر الكردينال ايزيدور مع حاشيته من الرهبان والجند عددها خمسون شخصا ٠ وتسربت أخبـار مجيئه ، وكان الناس ساخطين حتى قبل وصوله ، ولذا فعندما أقام الكاردينال اللاتيني القداس في كنيسة سانتا صوفيا وتلقى الامبراطور البركة من يده احتج اليونانيون بأن هذا خيانة لهم ، وعندما ذكر اسم البابا في أثناء مراسيم الصلاة صرخوا معلنين استياءهم ٠ وبعد هذه الصلاة الخطيرة سارت الجماهير المشمئزة في الشوارع بغضب وهي تلعن اللاتـين واتحـاد الكنائس وتلعن امبراطورها سرا ٠ وقد شجع الدوق الاكبر نوتاروس ، أعلى النبلاء مركزا بعد الامبراطور الجماهير الغاضبة ، فقد كان هو وزمرة خاصـة من النبلاء أعداء لدودين للاتحاد ٠ ويقال انه قد قال « اني أفضل عمامة المسلم على قبعة الكاردينال الحمراء » وسرى هذا القول من لسان الى لسان ٠

وهجرت كنيسـة القديسـة صـوفيا الجميلة حتى كأنهـا كانت ملوثة بالطاعون ، وتوجهت الجماهير التي كانت تتجمـع فيهـا الى الحانات عوض العبادة واخذت تقف في زوايا الشوارع لسماع مواعظ الرهبان المؤمنـين بالخرافات ، وكان رجال الكنيسة هؤلاء يصرخون « ان ملاكا سماويا سيحميكم بمشيئة الله ، وقد تدخل قطعات الكفرة المدينة الا انه فور دخولهم سينزل عليهم مـلاك أزرق من السماء ويمحوهم عن اخرهم » ٠ وكان النـاس في محنتهم ينتظرون المعجزة ٠ وفي مواجهة العـدو القوي فرّق الدين أهـل القسطنطينية ، وكان كل ذلك للحصول على مساعدة قدرها خمسون شخصا !

كانت القوة البشرية حاجة الامبراطور القصوى ٠ فقد كان قسطنطين رجلا دقيقا ومنظما ممتازا على الرغم من دماثة طبعه فلم يترك طريقا الا سلكه للتوصـل الى غايته وكان عليه أن يعرف عـدد الرجال الذين سيتيسرون له

للقتال بصورة مضبوطة الى حد الرجل الواحد ، ولذا فقد فحصت البيوت بيتا بيتا وتمت مواجهة كل رجل وسؤاله عن قدرته ورغبته في حمل السلاح للدفاع عن مدينته اذا دعت الضرورة ، وقد أودع الامبراطور هذه المهمة الى فرانزا الامين . وعاد اليه فرانزا بالارقام التي لم تكن مشجعة ، فمن مجموع عدد السكان البالغ مئة الف تقريبا أبدى ٤٩٧٠ أربعة الاف وتسعمائة وسبعون فقط رغبتهم وقدرتهم على القتال وكان هناك فى الاقل ٣٥٫٠٠٠ خمسة وثلاثون الفا في السن العسكري مقيمين في المدينة بحماية ورعاية الامبراطور ولكنهم لم يتقدموا ، وكان ذلك جبنا من بعضهم وغضبا من تصرف امبراطورهم مع روما من البعض الاخر . أما النبلاء فقد غادر كثير منهم المدينة من قبل خوفا من الحصار ، أما معظم الباقين فكانوا مخلصين تماما ومستعدين للقتال الى النهاية . ورفض اخرون الافصاح عن أفكارهم مثل الدوق نوتاروس ، وكانوا يرغبون فى الانتظار والانضمام الى الجانب المنتصر ، وقد أمروا زوجاتهم باخفاء ثرواتهم وتركوا فقراء المدينة جياعا . وقال فرانزا : في الحقيقة انه يعتقد بأنه لو تبرع هؤلاء النبلاء بكنوزهم المخبأة للحكومة لامكنها استئجار جيوش كاملة من المرتزقة للدفاع عن المدينة .

(وفي تلك الايام لم يكن لأية دولة أوربية جيش دائم . فعندما كانت الحرب توشك أن تقع كانوا يستأجرون المرتزقة للقتال وهم جنود محترفون من مختلف الجنسيات وكانوا يتقاضون أجوراً أكبر من المواطنين الذين كانوا يقاتلون عن عقيدة) .

وتقطبت أسارير الامبراطور عندما سمع تقرير فرانزا ، فلم تكن هناك سوى قلة من الحريصين على القتال لحماية أزواجهم وأطفالهم وبيوتهم . وهمس قائلا لفرانزا : « احتفظ بهذا سرا بيننا » وبقي الامر مكتوما الى ما بعد حصار القسطنطينية بأربع سنوات عندما كتب فرانزا نفسه قصة جهود امبراطوره لانقاذ المدينة .

ومما كان يبعث على السرور أن الجنويين في غلاطة قدموا قوة تبلغ ٤٠٠٠ أربعة آلاف مقاتل ولم يكن هدفهم الحقيقي مساعدة اليونانيين بقدر ما استهدفوا سبق البنادقة في حالة النصر • وكان هؤلاء الجنود من المرتزقة طبعا • وكان أكبر ربح حصل عليه المدافعون هو (جون جوستنياني) القائد الجنوي الذي وصل على ظهر سفينته في (يناير) كانون ثاني عام ١٤٥٣ وكان ضخم الجثة ذا قوة خارقة • وهو جندي محترف من أسرة نبيلة • وقد جاء من تلقاء نفسه لنصرة الامبراطور ، وجلب معه ٧٠٠ سبعمئة رجل كان منهم ٤٠٠ أربعمئة من الخيالة الجنويين المحنكين المعتدين بأنفسهم ومن ذوي الدروع اللامعة •

ولو كان الموفد على الامبراطور ملاكا سماويا منزلا لما سر به أكثر من هذا السرور ، ولذا عين جيوستنياني فورا قائدا عاما ووعده عند انتهاء الحرب بجزيرة ليسبوس الجميلة مكافأة له • وقال الامبراطور لفرانزا سرا : « انه نعم الرجل • وسأتمكن من العمل معه » • فقال فرانزا بخبث : « ان هذه مهنته وهو يقاتل في سبيل مصلحته » • ورد عليه الامبراطور : « انه رجل يعتمد عليه واني أتوقع كل خير من جيوستنياني » •

وبالاضافة الى الجنويين من غلاطه وجنود جيوستنياني المستوردين كان هناك حوالي ١٦٠٠ من البنادقة وغربيون آخرون يعيشون في القسطنطينية منذ أجيال ، وكانت هذه حربهم كما كانت حرب اليونانيين • وعندما حلت ساعة الحساب أثبت كثير منهم بطولتهم •

وكانت خطوة الامبراطور التي أعقبت ذلك هي استدعاء أجنبيين من ذوي المهارة الخارقة ، وهما معروفان في المدينة وكان أولهما (جوهان غرانت) وهو نساف[٢٥] الماني ماهر جاء فورا وعرض خدماته • أما الثاني فكان

---

(٢٥) النساف Miner مصطلح عسكري يطلق على المختص بأعمال الهندسة العسكرية التي تستعمل فيها المفرقعات لاغراض النسف والتخريب وحفر الالغام تحت أسوار العدو لتخريبها •

(أوربان) الهنغاري وهو مختص في المدفعية ، وعلم أنه التجأ الى الاتراك . وأخبر غرانت الامبراطور بخشونة ساذجة - وكان يتكلم اليونانية بطلاقة لانه عاش في المدينة مدة طويلة : « ان سبب ذهاب أوربان هو قلة مرتبه . فانه رجل ضخم ويحب الطعام ، وهو الان يعمل للكفرة الذين قد يكافؤونه بالذهب أو بالسوط كما يحلو لهم » . وتمتم الامبراطور : « ان أوربان سيكافأ بالذهب » . فقد أخبره أوربان منذ أمد طويل عن فكرة له حول صنع مدفع ضخم ، ولكن القسطنطينية لم يتيسر لديها في كل خزائنها ما يكفي من النقد لدفع تكاليف المدفع الذي كان أوربان يتخيله .

وكانت الليالي باردة ، ولم يسمح الامبراطور بالتدفئة في قصر بلاشيرناي ، لقد كانت تدفئته عن طريق أرضيته ككثير من البيوت العصرية ولكن الخشب الذي يشعل عادة في هذه التدفئة تحت الارضية كان يرسل الآن للمخابز لتهيئة الخبز وكان الطعام يجمع من كل مصدر ممكن ويدخر طوال الشتاء استعدادا للكوارث التي سيأتي بها الربيع . وقد جهز الامبراطور القلة المتيسرة من المحاربين المتطوعين بالقسي والبارودات والدروع من مخازن أسلحته . وفي الخارج صهرت سلسلة جديدة قوية للمرفأ وأصبحت سدا تسنده عوامات ضخمة من الخشب . ويقال ان حلقات السلسلة الحديدية كانت بحجم ساق جيوستنياني . وقد تقرر سحب السلسلة عبر مدخل خليج القرن الذهبي لغلقه حين يحين الوقت وتقرر تكليف كل سفينة تدخل المرفأ بالقيام بجزء من الخدمة العامة وأعلن الامبراطور : « اننا بحاجة لكل سفينة وكل حمولة » . وهكذا مرت ستة أشهر في استعدادات لا تعرف النوم وكان الناس متبرمين وفرانزا كئيبا . والدوق نوتاروس منعزلا ، وفي كل يوم كان الامبراطور يتذاكر مع جيوستنياني وجوهان غرانت حول الدفاعات العسكرية . فقد كان لا يزال في القسطنطينية حصن ضخم قوي ، وهو أسوارها المبنية في القرن الخامس التي أصلحت وأعيد بناؤها وتقويتها في القرون المتعاقبة وكانت هذه الاسوار حدود الامبراطور البيزنطية الان ولكنها

كانت تبدو حدودا غير قابلة للاقتحام اذ كانت أقوى وأحسن تحصينا من أسوار أية مدينة في أوربة ، وكان العالم لا يزال يعتقد أنها لن تسقط .

كانت الاسوار في ثلاثة قواطع ـ الغربي وهو الجانب البري ـ ثم على بحر مرمرة ، والثالث على جانب الخليج الذهبي . وكانت الاسوار البرية تمتد من قصر بلاشيرناي الى بحر مرمرة وهى مسافة تبلغ حوالي ستة أميال . وكان السور الداخلي وهو المسمى السور العظيم وارتفاعه من ٤٠ الى ٧٠ قدما وسمكه من ١٢ الى ٣٦ قدما ، وقد بني بالحجارة الصلدة وتدعمه أبراج عديدة . أما السور الخارجي فقد كان ذا أبراج أيضا ولكنه كان أقل ارتفاعا من السور العظيم وبينهما رصيف عرضه ٥٠ قدما يستطيع الجند التحشد عليه اذا نجح العدو في اقتحام السور الخارجي . وكان هـذا المحل الذي سيجري فيه الالتحام النهائي ومقاتلة العدو وجها لوجه وكانت جسوره المعلقة تسحب كليا فى أوقات الحصار . وقد بنيت جدرانه بحجارة ملساء وعمودية بشكل لا يسمح بتسلقها ، وأخفيت فيه أنابيب ماء لغمره عند اللزوم أو لايصال الماء الى المحصورين حين تتطلب الضرورة ذلك . وكانت المعلومات عن هذه الانابيب من أسرار الدولة ولا يعلمها غير الامبراطور سوى قليلين موثوق بهم . وكان في هذه الاسوار البرية القوية سبعة أبواب وقد لعبت كلهـا دورا مؤثرا فى القصة المؤلمة التي أوشك الستار أن يزاح عنها . أما الاسوار على بحر مرمرة فقد كانت أوطأ من الاسوار البرية لان البحر نفسه كان مانعا طبيعيا وعلى جانب القرن الذهبي كانت أكثر انخفاضا وبالنظر لوجود السلسلة الضخمة التي كانت تسد مدخل المرفأ اعتبر وجود السور القوي أمرا غير ضروري . هذه اذن هي الاسوار .

ولنتصور ما كان يعنيه اقتحام هـذه الاسوار في الايام التي سبقت استعمال المدفعية فقد كان هناك أولا الخندق ، وهو في الواقع نهر عريض عميق يجب اجتيازه واعتلاء جدرانه الجانبية المرتفعة المكسوة بالصخر الاملس . وفي حالة نصب أي جهاز يمكن به عبور الخندق وتسور جدرانه يواجه

القسطنطينية
بحر
مرمرة
البوسفور
القرن الذهبي

المهاجمون بعده السور الخارجي . واذا نجحت كباش الحصار[٢٦] التي يجب تقديمها ، في فتح ثغرة فيه أو أمكن تسوره بالسلالم فان القطعات المقاتلة للمدافعين تقف خلفه متحشدة في الانتظار . وأخيرا كان المهاجم يصطدم بالسور الداخلي وهو أقوى خط دفاع منفرد بناه البشر ، وقد نجح بصد موجة اثر موجة من المقاتلين في مدة تزيد على ألف سنة . لقد كان محمد الثاني بعيدا جدا عن الوثوق من نصر محقق .

---

(٢٦) كباش الحصار Battering , Rams آلات ميكانيكية تعتمد على قوة الصدمة في تخريب الاسوار ولها رؤوس قوية تصنع بشكل رأس كبش أحيانا . وهذا هو سبب هذه التسمية .

١٤

الأتراك يستعدون

حل نيسان عام ١٤٥٣ واقيم سرادق محمد الحريري ذو اللونين الاحمر والذهبي على تل أمام باب القديس رومانوس وعلى بعد ميل ونصف من الاسوار وبمسافة يتمكن منها الامبراطور من رؤيته من قصر بلاشيرناي . وكانت القطعات التركية في حالة مسير في سرايا من الفرسان والمشاة كل منها بقوة ألف محارب ، وحشود من المغيرين وحملة المقاليع والقواسين والرماحة . ومن على دكات الاسوار شاهد أهالي القسطنطينية التشكيلات المتراصة تنحدر من التلول وراء غلاطة التي كانت منذ أمد غير بعيد مسلك القوافل المحملة بالاطعمة الى سوق المدينة العظيمة ، وكانت قطعان الماشية تساق خلف الفرسان لتأمين الطعام لجيش العدو خلال الاشهر المقبلة .

وجاء العدو بعشرات الالوف ، وركب في المقدمة محاربو الاتراك ، وقد رسمت أرديتهم الحمراء قوسا عبر الخضرة الزاهية التي تكسو التلال في الربيع ، كانت سيوفهم المقوسة تسطع تحت وهج الشمس ، وسار بعدهم أسرى الرقيق من الصرب والبلغار والهنغاريين الذين سيرغمون على القتال .

ومن ثم سـار الجنود المرتزقة من المسيحيين الذين أتوا طوعـا للقتـال في صفوف الاتراك مقابل دراهم تدفع لهم • وفي كل يوم كان يجيء المزيد • وفي فترات متفاوتة كانت تبدو أفدنة من الثيران تسحب المدافع التركية • عسكر الجيش التركي على التلال غرب المدينة وامتدت خيامهم في الساحة من النهاية الشماليـة لخليج القرن الذهبي قرب قصر بلاشيرناي الى بحر مرمرة ، وفي النهار كانت التلول المتموجة منقطة بالجنود والرقيق والجياد على امتداد البصر • وفي الليـل كانت حمرة نيران معسكراتهم تنعكس على الغيوم الواطئة فتشـكل قوسـا أحمر جذابـا كان أهـل المدينـة ينظرون اليه برعب •

لقد عزلت المدينة الملكة عن العالم الخارجي ، ولم يعد في وسع أحد مغادرتهـا أو دخولهـا • وفي أعالي البوسفور حيث قلعة روم ايلي حصار الجديدة توقف كل سفينة تأتي من البحر الاسود محملة بالطعام للمدينة • ووضعت في أبراج القلعـة مدافع تستطيع رمي قذائف حجرية قـد يصل وزنها الى ٦٠٠ رطل ، واذا ما قاومت السفينة كانت المدافع تتولى أمرها • وعندما رفضت سفينة للبنادقة الامتثال للامر أغرقت بقذيفة واحدة •

وكانت الامتـان اللتـان أوشكتا أن تتقابلا في المعركة وجهـا لوجه متباينتين تباينا تاما شبيها بالتباين بين مسكني زعيميهما ، خيمة محمد المخططة الحريرية اللامعة وقصر الامبراطور الحجري القديم • كان الاتراك أمة حديثة ناشطة أما اليونانيون فكانوا قدامى ومتعبين ويعيشون في الماضي وهم على فراش الموت روحيـــا • وكان الاتراك رعـاة محـاربين متنقلين ، تحولوا الى جيش من الغزاة بين عشية وضحاهـا وكانت طباعهم خشنة ولا يشربون المسكرات • ومن الناحيـة العسكرية كانوا خيرة جنـود العـالم المدربين على أشد الضبط ووجوب الطاعة العميـاء للآمرين • كمـا كانت الفردية تسحق في مصلحة المجموع وكان هذا ، التدريب الملائم للجيش المطيع الهـادىء الصبور الذي يزينـه الجد والبطولة وحين يطغي عليهـم

الحماس الديني كان الافراد ينقلبون الى أسود ضارية وكان هذا الشعور الملتهب يستثار عادة في الصفحات الاخيرة من المعركة •

كانت الخيالة المعروفة باسم (السباهية) النواة الصلبة في جيش السلطان محمد وكان هؤلاء الفرسان يرتدون الزرد في المعركة ويحملون السيوف المقوسة ، والرماح الطويلة ، والدبوس وهو كرة حديد على قضيب حديد يمكن قذفه ، وكانوا فرسانا لا يتعبون • وكانوا يقطعون أحيانا من سبعين الى تسعين ميلا بين شروق الشمس وغروبها وتتبعهم خيول غير مسرجة ليستطيع الفرسان تبديل مطاياهم اذا أنهكت أو أصابها أذى • وكان باستطاعة الفارس التركي القتال راجلا بشرط أن يكون جواده قريبا منه • وحين يخيب هجوم المشاة كان السباهية يسترون انسحاب المهاجمين • وضباط السباهية ذوو مراكز مهمة اذ كانت ملابسهم ثمينة ، وخيامهم أنيقة ، ولكن ذلك لا يمنع أن يخلع أي منهم معطفه الثمين والمزين بالفراء ليقوم بتثبيت نعل جواده ، وهو ما كان قليل من الضباط المسيحيين يرتضي القيام به حتى وان كان يعرف كيف يفعل ذلك •

كان السلطان محمد يدفع أجورا حسنة للمرتزقة المسيحيين الذين يستخدمهم وهو ما لا يستطيع الامبراطور الفقير قسطنطين القيام به • ولديه أيضا مهندسون مهرة كان يدفع لهم أكثر • وكان هذا هو السبب في انحراف أوربان الهنغاري • واذا بدت من أي منهم جنديا كان أو ضابطا وقاحة أو عصيان فلابد أن أحد الاتراك القريبين من ذوي الرتب العالية سيقتله بسيفه • كما ان العنصر الانكشاري هو الذي جعل الجيش التركي فريدا في بابه • ومن الغريب أن يكون هؤلاء المحاربون المتعصبون مسيحيي المولد ، فعندما كان الاتراك يستولون على القرى المسيحية كانوا يختارون أقوى وأذكى الغلمان من الذين يقل سنهم عن الخامسة عشرة ويرسلونهم الى آسية الصغرى للتدريب فيعيشون مع أسر الفلاحين الاتراك ويتعلمون أداء الفرائض الاسلامية ونتيجة لحسن محاولتهم وحداثة سنهم كانوا ينسون

والديهم الحقيقيين أو أنهم من يفتقدوهم في الاقل • وفي الواقع كان هؤلاء أشد فئات الجيش التركي عنفا في معاملة المسحيين المغلوبين •

وكان الانكشاريون يمثلون (قطعات الصاعقة) في الجيش التركي وقد أكسبهم التمرس بشتى أنواع التدريب العسكري صلابة ، كما كانوا يطعمون ويجهزون أحسن من باقي الجيش وكان القول السائد : « لنسمهم الانكشارية (الجنود الجدد) ولتكن أساريرهم دائما متهللة وأعمالهم موفقة وسيوفهم قاطعة • ولتكن سيوفهم مسلطة على رقاب العدو وحيثما توجهوا فليعودوا وضحكة النصر تعلو وجوههم » •

ولم يكن تدريب الانكشارية يختلف كثيرا عن تدريب المغاوير (الكوماندو) في عصرنا الحالي فكان عليهم القيام بتدريب بدني شاق كالحفر ، وحمل الاحمال الثقيلة ، وأن يقضوا مددا طويلة بأردأ أنواع الطعام وأقلها • وأن ينجزوا أعمالا تتطلب قوة وتحملا غير اعتياديين وكان عليهم اطاعة كل الاوامر طاعة عمياء وحين يكمل الجندي المستجد تدريبه ويصبح مرشحا للالتحاق باحدى السرايا فان قبوله يتم بضربة على رأسه من قبل قائده ، غالبا ما كانت تلقيه أرضا فيتخبط بدمه فاقد الوعي • وعندما كان الانكشاري يسير بين الناس المدنيين لم يكن يسمح له أن يتسكع في سيره ولذا كان عليه أن يحمل عصا بيضاء لكي يعرفه الجميع ، وفي المعركة كان يرتدي عمرة بيضاء وعليه أن يتصرف كجندي وأن يكون متواضعا •

ولم يحرز أي جندي في العالم قط ما أحرزه من صيت في الشجاعة ، والقدرة على القتال ، والاخلاص للعقيدة • وكان عدد الانكشارية مبدئيا حوالي ٦٫٠٠٠ جندي ولكن في عهد محمد الثاني كان العدد الذي حارب في القسطنطينية منهم قد بلغ ١٢٫٠٠٠ وكان الانكشارية عادة يكلفون بانهاء القتال ، وتأمين النصر ، حيث كانت سمعتهم المذهلة تجعل مجرد حضورهم ميدان المعركة يكفي لشل العدو وزعزعته • وبالنسبة لهذا الجيش الجبار

كان الدين يسبق الاهل والنفس والجنس • فعند الغروب كان كل مسلم يسجد لربه في ذلك السهل الفسيح مقيما صلاة المغرب • وكان السلطان يحني نفسه على سجادته عدة مرات في اليوم وسيفه ملقى بجانبه وشباته تتجه نحو مكة المكرمة • وفي يوم الجمعة وهو اليوم المقدس لدى المسلمين ، لم يكونوا ليقاتلوا أو حتى يستعدوا للقتال[٢٧] •

لقد جاء في قرآنهم (فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما)[٢٨] •

ولم يكن لدى المسلم طريق للغفران من حياة ملآى بالذنوب سوى الشهادة في القتال لتنقله الى جنان الفردوس • ولاثارة الجند الى درجة قصوى من التعصب الديني كان السلطان يستدعي الدراويش – المولويون[٢٩] – في الليالي التي تسبق المعركة • وكان هؤلاء أصحاب طريقة من طرق الاسلام وهي في تعدد أشكالها تشبه فرق الرهبنة في المسيحية • وكان هؤلاء الدراويش يقومون برقصاتهم بموجب طقوس معينة ولكل دورة أو حركة فيها معنى رمزي • وبأرديتهم السوداء الطويلة وقسمها الاسفل العريض وسترهم القصيرة كان الدراويش يدخلون

---

(٢٧) ان الدين الاسلامي الحنيف لا يمنع القتال أو الاستعداد له في يوم الجمعة كما هو معلوم •

(٢٨) سورة النساء الآية ٧٤ •

(٢٩) المولويون (الدراويش الراقصون) نسبة الى المولوي الصوفي جلال‌الدين محمد المولوي البلخي الرومي • وهو من أكبر شعراء التصوف الايرانيين وصاحب الديوان الصوفي المشهور بالمثنوي المعنوي ولد سنة ٦٠٤هـ في بلخ وتوفي سنة ٦٧٢هـ في قونية والطريقة المولوية التي يتميز بها الدراويش المولويون يعتبر اتباعها انهم من الغلاة أرباب الاتحاد والحلول من الباطنية فهم يدعون أنفسهم بأهل الباطن • ورجال الشرع والدين أهل الظاهر وما يقومون به من سجاع ورقص وناي وعود يعتبر تلاعبا باسم الدين •

معسكرات الجيش بصفوف طويلة ويتحركون ببطء وتأن نحو الجند الذين كانوا ينتظرونهم في صمت متوتر • وعلى صوت موسيقى الطبول الخافت يبدأ رئيسهم بالدوران حول نفسه على مشط قدمه اليمنى الحافية ورأسه منحن بانخفاض نحو كتفه الايمن وذراعاه مرتفعتان الى الجانبين وعيناه نصف مغمضتان في نشوة روحية ثم يبدأ درويش ثان بالدوران بنفس الطريقة ثم ثالث وهكذا الى أن ينضم خط كامل الى الرقص ويبدو وكأن العالم كله يدور وتزداد السرعة أكثر فأكثر وينفتح أسفل الرداء نحو الخارج بزاوية قائمة مع الجسم • وعلى شكل دوائر تحيط بدوائر كان الراقصون يدورون دوما بسرعة متزايدة ولكن دون أن تتلامس الايادي أو الاردية وكانت ملامحهم تتغير ويبدون في حالة غريبة ويستمر الرقص ساعة ونصف ساعة بدوائر متزايدة أسرع ثم أسرع الى أن ينسوا الأرض التي تحتهم وينحصر فكرهم في الله وفي هذا الوقت يكون الجند مثارين الى درجة عظيمة ومستعدين للقيام بأي عمل لاعلاء كلمة الله •

وهكذا كان جيش السلطان يتكون من ١٢٫٠٠٠ انكشاري و٢٠٫٠٠٠ سباهي و١٠٠٫٠٠٠ من المشاة الاعتياديين وأعداد لا تحصى من الرقيق والرعاة الذين لبوا نفير الخلاص • وبصورة عامة قدر فرانزا عدد المهاجمين بـ ٢٥٠٫٠٠٠ مقابل ٧٫٠٠٠ الى ٨٫٠٠٠ مسيحي يدافعون عن ستة عشر ميلا من الاسوار(٣٠) • وخلف العدو كانت المدافع التركية الثقيلة تتقدم وطوال النهار كانت أفدنة الثيران تتقدم عبر التلول خلف غلاطة وهي تجر المدافع التي نصبها الاتراك مقابل الاسوار البرية وكانت تنتشر في خط جبار

---

(٣٠) تقدر التواريخ العسكرية التركية قوات الطرفين كما يلي :
الاتراك ــ ٢٠٠٫٠٠٠ شخص و١٣٠ مدفعا مختلف العيار •
اليونانيون ــ ١٢٫٠٠٠ شخص من القوات النظامية ويضاف اليهم من المتطوعين المسلحين ما يقدر بربع سكان القسطنطينية البالغ عددهم في تلك الفترة ١٨٠٫٠٠٠ فيكون عدد المتطوعين ٤٥٫٠٠٠ وبذا تبلغ قوة المدافعين حوالي ٥٥٫٠٠٠ أي ربع القوة التركية تقريبا •

مقابل الاسوار البرية تماما • وكانت أثقل وحدات المدفعية محشدة في أربع نقاط سوقية • و (ستراتيجية) ولاظهار الاحتقار وعدم الاكتراث أمر الامبراطور ١٠٠٠ رجل من بحارة السفن الموجودة في المرفأ وأكثريتهم من البنادقة بالتجمع على الاسوار حيث ساروا على وقع الطبول والابواق رافعين علمهم الموسوم بأسود القديس مارك جيئة وذهابا بنشاط على طول الاسوار البرية ، لقد كان هذا مجرد عرض ولكن السلطان راقبه من تله بانزعاج • اذ كان السلطان بعيدا عن ضمان النصر فهل سيكون الرجل الوحيد الذي يوفق في اقتحام هذه الاسوار العنيدة أو هل سيتقهقر عنها مثل الآخرين •

ولم يستطع السلطان في خيمته الحريرية النوم لان الاصوات الوحيدة التي كانت تتردد على التل الذي عسكر فيه هو صهيل طارىء لجواد ؛ أو المسير النظامي الخافت للحرس • وكان السلطان محمد يختلف عن معظم أسلافه بأنه رجل مثقف • ولكن الكتاب الموجود قرب فراشه كان الآن مقلوبا على وجهه فقد منعه قلقه من القراءة • وقام بفارغ صبر من فراشه وأمر باحضار وزيره الاول خليل باشا • ولما وصل النبأ الى خليل باشا ارتعدت فرائصه وقبل زوجته وأطفاله وكأنه يودعهم الوداع الاخير ، فقد أنذر المسيحيين مرتين قبل ستة أشهر وأنذرهم بالتهيؤ قبل ذلك بستة أشهر اخرى وقد تهيأوا وكان هذا خيانة منه • لقد كان يحب أصدقاءه المسيحيين ولكنه تقاضى الثمن منهم وهذا ضعة مشينة •

وعندما انحنى خليل باشا أمام سلطانه كان مظهره الخارجي يبدو هادئا • وكما كان معادا عند حضور أي تركي أمام سلطانه جلب خليل باشا معه هدية فقد ملأ قدحا بالذهب ووضعه عند قدمي السلطان الشاب • وعبّر محمد عن رضاه بالهدية بانحناءة ، وكان عادة يحي وزيره الاول بضحكة أو دعابة لطيفة ، حيث كان السلطان محمد باشا مرحا • لكنه في هذه الليلة كان يعلوه الجد التام • وهتف السلطان قائلا : « انني أريد منك هدية

أعظم يا مستشاري المحترم » ونظر الوزير الى سلطانه من عينيه المنخفضتين حيث استمر السلطان : « انني أريد القسطنطينية » لقد كان يريد تحقيق الهدف الاقصى ولكن كلامه لم يكن شخصيا • وتنفس خليل باشا الصعداء وكاد أن يسقط على الارض ولكنه تمالك نفسه وأجاب بلباقة : « ان الاله الذي منحك حتى الآن هذا الجزء العظيم من الامبراطورية لن يحرمك من مدينتها الوحيدة الباقية ياسيدي • أما أنا شخصيا وباقي عبيدك المخلصين فسنضحي بأرواحنا وأموالنا عن طيبة خاطر لتحقيق ما تريده » • وهدأ محمد فقد كان يبحث عن الثقة • وفي ليال أخر كان السلطان يخرج متنكرا بين جنوده لسماع ما يتردد بينهم واذا عرفه أحدهم فلم يكن يجرؤ على كشف ذلك • وكان يناقش قواده ويختبر مهندسيه على أية بقعة من الاسوار يجب أن توجه الضربة ؟ وأين يجب أن ينشر ألغامه ؟ وفي أية منطقة يمكن اقامة سلالم الصعود ؟ واذا كانت هناك نقطة ضعف فأين هي ؟

وكان قد تذاكر قبل بضعة أشهر مع أوربان الهارب من الامبراطور واستفسر محمد سائلا : « هل يستطيع أوربان أن ينصب مدفعا يستطيع رمي قذائف ذات حجم يدمر أسوار القسطنطينية ؟ » وعندما أقنعه أوربان أن بالامكان صنع هذا المدفع ، بنى السلطان معمل صهر في أدرنة تحت اشراف أوربان واشترى المقادير اللازمة من المعادن وبعد ثلاثة أشهر رأى مدفعا برونزيا لا يكاد العقل يتخيل ضخامته • وكان هذا الوحش الفاتك في طريقه الآن الى الجنوب •



١٥

الحصار

ازداد التوتر داخل الاسوار مع تطويق الاتراك البطيء للقسطنطينية • فكان الناس يتساءلون متى ستنزل الضربة ؟ كان ذلك حديث النساء في الاسواق ، والرجال في الحانات • هل ستنزل اليوم أم غدا ؟ وهم يصبحون دون مأوى غدا ؟ وكانت أعصاب الناس متوترة طيلة الشتاء • لكن الحياة استمرت واستمر الرجال على مزاولة أعمالهم ، وبقيت الحوانيت مفتوحة كما استمر التجار على المساومة في السوق ، واستمرت النساء على ادارة بيوتهن بأحسن ما يستطعن • وأستهلكت الملابس وبذلت الجهود في تصليحها، واستمر الاطفال يلعبون في أبواب الدور بالازقة الضيقة • وأخذ الطعام

يتناقص ولم تصل السفن مع شحنات الغلال المنتظرة من الغرب • واقتصر تناول اللحم على الجند فقط • وكان ما يأكلونه منه قليلا جدا • أما الخبز فكان يوزع بالتساوي على الجميع لكن الامبراطور طلب الى المسنين اعطاء جزء من نصيبهم الى الشبان الذين سيتحملون العبء الاكبر • وكان الضعفاء من الناس يرتعدون فرقا وأخفى الطماعون ثرواتهم • أما الخونة فكانوا يتآمرون في اختيار السيد الذي سيتبعونه حين يحين وقت القرار • لكن النواة الصلبة من المقاتلين كانت تتلهف للقتال • وبينما كان الاتراك يتدفقون بتزايد الى معسكراتهم كانت المقاومة تتصلب • وأخذ المرتزقة البنادقة المكلفون بحراسة قصر بلاشيرناي يزدادون اعتدادا وجرأة كلما اقترب الخطر • وكان الجنويّون وهم خيرة المقاتلين في المدينة ينتظرون تلهف ، أما المخلصون من اليونانيين فكانوا حريصين ومستعدين للموت في سبيل الامبراطور والكنيسة ، وكانوا يهيئون أنفسهم يوميا للموت •

ولم يعد الامبراطور يجلس على عرشه في قصر بلاشيرناي • اذ كان على ظهر جواده كل يوم على امتداد الاسوار يتفقد استعدادات الحصار ، ويشجع الجند أثناء قيامهم بأعمالهم •

كان القائد جيوستنياني وجوهان غرانت يركبان معه لتفقد التحصينات • وقال جيوستنياني : « ان الخطر الاعظم وأضعف النقاط تكمن هنا » مشيرا الى القسم السفلي من السور بين باب القديس رومانوس وقصر بلاشيرناي حيث كان نهر ليكوس قد حفر ممرا عميقا تحت الارض • وقد أيد جوهان غرانت ذلك قائلا : يجب تقوية هذا القاطع • وسبب تأمين المال والرجال اللازمين لذلك ارهاقا شديدا لموارد الامبراطور المحدودة حتى استنزف اخر فلس فيها • ولم يكن أحد في العالم ليصدق يومئذ أن امبراطورية القسطنطينية تعجز عن تأمين المال اللازم لتصليح أسوارها ولم يكن من الممكن تصور هذه المدينة التي كانت يوما ما مشهورة بغناها وترفها عاجزة عن دفع أجور جنودها • ولكن هذا العمل كان أمرا شديد الخطورة وقد انصرف له الامبراطور مضحيا

بالامور الاخرى وتمكن من توفير قسم من المبالغ عن طريق بيع بعض المواد وفرض ضرائب على الناس الى الحد الاقصى بمساعدة فرانزا القدير حتى توفر له مبلغ ٧٠٫٠٠٠ بيزنط ذهبي[٣١] . وكان الغرض الوحيد هو تقوية الاسوار وهي الامل الاخير كما كان يرى الخبراء لإنقاذ المدينة وكان المقرر أن لا يصرف أي بيزنط لاي غرض اخر .

ثم طلب الامبراطور رجلين من رجال الكنيسة وهما الراهبان نيكوديموس من أهالي رودس ومانويل جاغاريس . ووقف الرجلان أمامه باحترام بأرديتهما السوداء وقد بدا وجهاهما شاحبين بالنظر للحيتيهما الحمراوين المجعدتين . ورفع الامبراطور كيسا من ثلاثة أكياس كانت موضوعة على منضدة بينه وبين زائريه وسمع رنين الكيس وقال مخاطبا الراهبين : « لقد عملنا لمدة أربعة أشهر فى القسطنطينية لتوفير وجمع المبالغ اللازمة ، وقد جمعنا القطع الذهبية الموجودة الان في هذه الاكياس وهي من أجل الدفاع عنا بصورة نهائية ضد الكفرة ولذا قررنا وضعها بعهدتكم باعتباركم آمن الاوصياء » .

وصدرت تعليمات دقيقة عن الاجراءات الواجب اتباعها في رقابة وصرف الاموال وبعدئذ خرج الراهبان من حضرته متراجعين باحترام وقد حمل أحدهما كيسا والاخر كيسين . ولكن الاكياس الذهبية الثلاثة لم تصرف في وجهها قط فبعد عدة أشهر عندما سقطت القسطنطينية في يد المهاجمين عثر بعض الانكشارية أثناء قيامهم برفع الانقاض على ثلاثة أكياس تحوي ٧٠٫٠٠٠ بيزنط مخفية عميقا في برج . فالراهبان لم يدفعا قط من الذهب المودع لديهما وقاما عوض ذلك باخفائه ليتصرفا به في المستقبل . وكان القاطع الذي أرصد المبلغ لتقويته أول قاطع انهار في المعركة ولم يتقاض الرجال الذين كلفوا بتقويته أي أجور عن عملهم .

---

(٣١) عملة بيزنطية .

وفي يوم ١٢ نيسان شرعت المدافع العثمانية تقصف الاسوار البرية • وهدرت المدافع وارتجت أسس المدينة بتأثيرها • ولاحظ الناس تحشد الاتراك طوال الاسابيع الماضية ، وكأنهم يراقبون عرضا عسكريا وباعجاب تسوده الرهبة كانوا يقفون على دكات الاسوار • وانتابتهم الآن حالة من الفوضى فتراكضوا بعيدا عن الاسوار مذعورين في صراخ وعويل خلال الازقة الضيقة وتكدسوا في كنيسة سانتا صوفيا التي كانوا يحتقرونها حتى أمد قريب • وأخذوا يسيرون حاملين صورة العذراء عاليا ولكن عيني العذراء كانتا مغمضتين عن دعواتهم الانانية • واستمر هدير المدافع •

وعلى الاسوار حيث كان المحاربون وضباطهم يديرون الدفاع عن المدينة كان هناك توتر دون فوضى وكان الموقف حسنا • ولم يستطع المدافعون الاجابة بالنار اذ أن عتادهم كان محدودا ويجب توفيره لايام أشد خطرا كانوا واثقين من حلولها • وبالاضافة الى ذلك امتنع المدافعون عن استخدام مدافعهم الثقيلة خشية أن يسبب انفلاقها زعزعة وتهديم الاسوار القديمة التي كانت المدافع موضوعة عليها •

ولكن كان هناك الكثير مما تستطيع تلك العصبة القليلة من المقاتلين انجازه وقد قاموا به كرجال موهوبين • والان وقد حان وقت العمل كان اليونانيون والبنادقة والجنويّون جميعا يتصرفون تصرف الابطال •

وكان الامبراطور وقائده جيوستنياني لا يعرفان الكلل ولم يناما قط ، فقد كانا هنا وهناك • وفي كل محل يحضرانه كان جيوستنياني يوجه والامبراطور يشجع • واستمرت المدافع التركية على الرمي كل يوم وطوال اليوم وبدأت كتل كبيرة من الاسوار الخارجية تتخلخل وتسقط الى الارض • ولكن عند حلول الظلام كان اليونانيون يزحفون الى الامام ويعملون طوال ساعات الظلام في اصلاح أضرار النهار فكانوا يرفعون الحجارة المتكسرة واذا استطاعوا استبدلوها بجديدة وكانوا يربطون الافرشة في النقاط الضعيفة ويضيفون لها بالات الصوف لتخفيف الصدمة وجلود البقر كحماية اضافية •

وفي كل صباح عند انبثاق النور كان الاتراك يرون الاسوار التي دمروها وهي قائمة من جديد تبدو وكأنها بالقوة السابقة نفسها • وكمحاولة لمخادعة المدافعين توجه الاتراك الى الاسوار البحرية ونصبوا هناك سلم تسلق لـكن اليونانيين كانوا مستعدين لهم حيث انهال عليهم من الاعلى القار المغلي والرصاص الحار وتساقط الاتراك في البحر وهم يصرخون ويشتعلون •

وعندما حاول الاتراك حفر نفق تحت السور اكتشف جوهان غرانت الاصوات التي تدل على ذلك وذهب باقصى سرعة الى قصر بلاشيرناي وقال للامبراطور : « تفضل معي يا سيدي » وقد أصبح الرجلان الآن صديقين ولم يبق بينهما الا القليل من المجاملات الرسمية • وأدار الامبراطور الذي كان على صهوة جواده رأس الجواد معتبا غرانت ومجتازا الصخور الوعرة وعندما وصلا (الباب الاعوج)[٣٢] بين القصر وباب القديس رومانوس في الاسوار البرية توقفا • وقفز غرانت من جواده واضعا اذنه على الارض وقائلا بهمس: « اصغ » وكان وجه الالماني العريض قد احمر من الحماس • وبكل تأكيد كان يمكن سماع صوت الحفر الخافت وابتسم الألماني لرفيقه وأخبره بخطته• وسلط المدافعون دون أن ينتظروا حلول الظلام الى داخل النفق الذي تطلب حفره عناء كبيرا كمية من غازات الكبريت تكفي لخنق كل الموجودين فيه وكل من يحاول دخوله فيما بعـد • وحاول الاتراك حفر الانفـاق تحت الاسوار في أربعة عشر محلا ، ولكن في كل مرة ، وفي كل محل أحبط اليونانيون محاولتهم بالكبريت أو بأوعية كريهة الرائحة أو بالنار أو بالماء • وقد التقى العدوان الاتراك واليونانيون تحت الارض واشتبكوا وجها لوجه ، ولكن لم ينجح المهاجمون قط في تفجير الانفاق •

وكان المدافعون شجعانا ومنتبهين ولكن الليالي أخذت تقصر وأخـذ

---

(٣٢) كان للقسطنطينية عدد كبير من الابواب العسكرية والاعتيادية وقبيل الحصار أغلقت الابواب الاعتيادية ببنائها وبقيت الابواب العسكرية المحصنة التي كان عددهـا ١٢ بابا منهـا باب القديس رومانوس والبـاب الاعوج وباب كركوبورتا وفنار •

السور الخارجي ينهار بأسرع مما يستطيع المكلفون بالترميم سد ثغراته •
وأخذ أهل المدينة يرتعدون عندما وصلتهم هذه الاخبار وبدلا من الاسهام في
الدفاع عن مدينتهم كانوا يسيرون وراء الرهبان ويختفون في الكنائس •
وفي يوم ١٨ نيسان أي بعد بدء القصف بستة أيام حصلت ثغرة خطيرة وانهار
برجان • وقرر السلطان محمد ان هذه هي فرصته وأصدر أوامره لقواته
بالهجوم على المدينة حالا •

وعند حلول ليلة الثامن عشر زحف المشاة الاتراك بطرابيشهم الحمر
وأعقبتهم الخيالة بدروعهم والقواسون والرماحة • وحاولوا بواسطة كلاليب
مثبتة في رماحهم الوصول الى أغصان الكرم ، وبالات القطن التي رمم بها
اليونانيون الاسوار ومن ثم اشعال النار فيها • ولكن المدافعين أطفأوا النار
فورا • وحاول الجنود الاتراك تسلق الاسوار ولكن جيوستنياني ورجاله
صدوهم بخسائر فادحة • وكان صراخ الجرحى يصل الى البيوت حيث كان
النساء يصلين أمام ايقوناتهن ، ولم ننم أحد طيلة أيام المعركة •

وفي أربع ساعات من قتال ليلي شديد فقد الاتراك ٢٠٠ رجل ، وقرر
السلطان محمد الانسحاب واعترف غاضبا بالخيبة ب « ان جيشا مسلما تبلغ
قوته مئات الالوف أوقفته قلة من المسيحيين المتفانين » •



١٦

السُفن المنتصِرَة

كان الاشتباك التالي لذلك بحريا . وكانت القوة البحرية التركية في كفاءتها دون باقي القوات التركية المقاتلة بمراحل ، فكانت أضعفها جميعا . واذا كان الله قد منحهم البر فقد ترك البحر للمسيحيين . وكان الاتراك وهم قبيلة من بطون الصحراء يجهلون ما يتعلق بالطرق المائية فقد كانوا رائعين على ظهور الخيل وحيارى على ظهور السفن . ولكن مع ذلك لم يتوقف السلطان محمد فقد حاصر المدينة وأطبق عليها برا وأصبحت الان على وشك

الهلاك جوعا ، لكن سفن النجدة التي تحمل الطعام والجند من الغرب كانت لا تزال قادرة على تحديه • وللتغلب على هذا المحذور أنشأ السلطان أسطوله الخاص • فاستدعى السفن من مصر وسورية ومن أعالي البوسفور ومن كل ميناء يمكن أن تستأجر منه السفن بالذهب فجمع اسطولا من السفن بلغ عددها فيه عند تكامله ٣٠٠ سفينة ولكنه كان اسطولا عجيبا • فمعظم السفن كانت قوارب صغيرة مكشوفة باستثناء ثماني عشرة شونة حربية(٣٣) كانت بلا مدافع ومزدحمة بالجند •

وفي حال من الفوضى والارتباك بدأت سفن العدو الان تأخذ مواضعها حول القسطنطينية مارة برأس هيلاس ونازلة مع البوسفور بالاسلوب التركي المألوف • فكانت الابواق تصدح والطبول تقرع والجنود تهتف وبعد تحشد السفن رست مثل هلال غير منتظم خارج السلسلة التي كانت تسد مدخل المرفأ وعلى مقربة منها • ومرة أخرى صعد أهل المدينة الاسوار ورافبوا بصمت السفن التركية وهي تتخذ أماكنها • وكان الاسطول الامبراطوري المحصور في المرفأ في خطر وقبل عشرة أشهر عندما قدر الامبراطور أن محمدا انتوى الحرب حتى النهاية استجدى السفن والمؤن من جنوة والبندقية طالبا اياها باسم المسيحية وقد وعدوه بالسفن بصورة مؤكدة وكان ذلك في حزيران عام ١٤٥٢ وقد حل الان نيسان عام ١٤٥٣ ولم تصل اية معونة منهم • وفي هذه الفترة عندما وصلت آمال المسيحيين أحط درجات الضعف ظهر مرتسم جديد في الافق ووضع المتفرجون اليونانيون من على الاسوار أيديهم على أعينهم لاتقاء أشعة الشمس عندما كانوا ينعمون النظر في اتجاه الغرب وانكشفت لهم خمس سفن طويلة برزت واضحة من الضباب البعيد تمخر واحدة وراء أخرى وهي ذات مقدم مرتفع وشراع مربع منشور تماما • وهتف الناس لقد وصلت أخيرا السفن ولابد انها محملة بالقمح وفي خزائنها النبيذ والزيت وعلى ظهرها الملاحون والجنود المدربون • ولوح أهل المدينة

---

(٣٣) الشونة : المركب المعد للجهاد في الحرب •

بأيديهم وهتفوا ورموا قبعاتهم في الفضاء ورفعوا أطفالهم الى أعلى ليستطيعوا الرؤية وحدقوا بعيدا انتظارا لسفن أخرى تتبعها ولكن لم يكن هناك سفن أخرى. وها هي الآن خمسة سفن تقابل ثلاثمئة سفينة ولكن السفن الخمس الكبيرة كانت تدار من قبل بنادقة وجنويين متمرسين وتقدمت بجرأة نحو الهلال الذي شكلته السفن التركية المتقاربة التي كانت بانتظارهم . وقد علم فيما بعد أن السفن المسيحية قد تأخرت بسبب الرياح المعاكسة طوال شهر آذار ومعظم شهر نيسان ولم يستطع ملاحوها الذين نفد صبرهم أن يروا قبة سانتا صوفيا ترتسم في الافق الا عند انبثاق فجر يوم ٢٠ نيسان .

وكانت الريح الآن تهب من خلفها فتدفعها مسرعة تشق الماء وتنشره ، وتصاعد هتاف التشجيع والاستهزاء من كل الذين على ظهورها وفي هذا الجو اندفعت السفن الخمس نحو عداوة لا ترحم . وكان الالوف من المتفرجين يراقبونها من السواحل ومن أسوار المدينة ومن الساحل الاوربي في غلاطة والساحل الاسيوي التركي وكان الاتراك والمسيحيون سوية ينظرون الى المسرح . وعندما وصلت الانباء الى السلطان اندفع بأقصى سرعة على جواده قاطعا الميلين اللذين يفصلان خيمته عن الساحل مقابل النهاية القصوى لغلاطة .

كانت السفن المسيحية تقترب ، وبالنظر لارتفاعها الكبير عن سطح الماء كانت في وضع مسيطر جدا بالنسبة للسفن التركية الصغيرة لاستطاعتها رمي السهام والرماح ودحر محاولات مجانبتها واعتلائها . وكان ملاحوها المدربون مستعدين تماما للهجوم والدفاع فكانت دروعهم تتقي سهام العدو ومقذوفاته الصغيرة وعلى سفنهم براميل ماء لاطفاء النيران التي قد تشعلها مقذوفات العدو النارية ، وهم مجهزون بفؤوس لقطع الايدي وتحطيم الرؤوس اذا حاول البعض من المتهورين التقرب من السفن واعتلاءها .

وبجرأة محيرة مضت السفن الخمس في طريقها دون انحراف الى داخل أسطول العدو وكانت الشمس الان قد علت في كبد السماء وتوقفت الريح وسبب هذا توقف السفن الكبيرة وبدأت المعركة الحقيقية حين حاولت

السفن الصغيرة تطويقها ولكن الجنويين كانوا يرمون السهام والرماح من أبراج السواري ويقذفون بالحجارة الثقيلة من ظهور سفنهم على السفن الصغيرة التي كانت قريبة منهم • وكانت النتيجة مفجعة بالنسبة للسفن الصغيرة وعلت هتافات الفرح من أسوار المدينة عندما أخذت سفن العدو تنقلب وتغرق الواحدة اثر الاخرى وكان بحارتها يسبحون بجنون تحت وابل من مقذوفات المسيحيين وغدا البحر مغطى بالسفن والرجال السابحين بحيث تصعب رؤية الماء • واستمرت المعركة ثلاث ساعات وكان السلطان محمد يعدو بجواده جيئة وذهابا على الساحل وهويصرخ شاتما :«أيها المجانين الجبناء» • كما كان يعد بالجوائز والمكافآت من يعتلون سفن العدو ، ويتوعد الهاربين • وفي سورة غضبه أقتحم الماء بجواده ، وغمر الماء رداءه الطويل وصرخ بقائده البحري : « امنعهم من دخول البحر أو لا تعد حيا » وبذل أمير البحر التركي ما في وسعه وأمر رجاله باعتلاء سفن العدو مهما كان الثمن ، ونطح هو بشونته سفينة نقل ايطالية ، ولكن هزيمة اسطول السلطان كانت كاملة • ويقال انه فقد في ذلك اليوم جميع سفنه الثلاثمئة وحوالي ١٢٫٠٠٠ رجل ضمنهم بعض خيرة مقاتليه وبالرغم من ان أمير البحر كان قد جرح جرحا خطيرا وفقد احدى عينيه فقد نزع السلطان منه القابه وممتلكاته ولم يبق على حياته الا بناء على توسل جنوده • ولكنه ضرب ضربا مهينا فقد القي أرضا وضربه العبيد بعصي ذهبية ثقيلة ولم يفقد المسيحيون رجلا واحدا وهبت الريح مجددا وانتفخت أشرعة السفن الخمس ومخرت مجتازة حطام العدو نحو السلسلة وعند دخول المرفأ أفرغت حمولتها من الطعام والنبيذ والجند •

وفي هذا الوقت نفسه حين كانت نشوة الفرح في القلوب توجهت سفينة يونانية صغيرة للتحري في البحر عن سفن أخرى متوقعة وتطوع اثنا عشر رجلا شجاعا للابحار بها وقد تنكروا كملاحين أتراك ورفعوا العلم التركي الاحمر ونجحوا بالمرور دون ازعاج • وفي المدينة لم يكن هناك حد لاحتفالات الاهالي ، وللمرة الاولى منذ ستة أشهر كان أهل القسطنطينية في

فرحتهم شعبا واحدا متحدا • لقد كانت معركة رائعة ، وكان من الممكن أن يتغير سير الامور فقد كان السلطان الشاب عاطفيا ومتحمسا ، وقد تثبطت عزيمته • فالالغام لم تؤمن النصر ، والهجمات قد فشلت ، والسفن جلبت الكارثة • وكان مستعدا لان يرفع الحصار الذي عمل لتهيئته ليل نهار طوال عام وان يصدر أوامره بالانسحاب • كان خليل باشا مشاوره المحترم ما يزال يرعى مصالح أصدقائه المسيحيين ولذا فقد سر لهذا التحول وأيد وجهة نظر السلطان وقال مناقشا : « ان من الواضح أن القسطنطينية لا يمكن الاستيلاء عليها الا بهجوم مزدوج يوجه من المرفأ ومن ناحية البر • وبما ان مرفأ خليج القرن الذهبي لايمكن اقتحامه وهو أمر لاشك فيه كما تأكدنا من ذلك، فاذن لا يمكن القيام بهجوم ناجح لان ذلك مستحيل بكل تأكيد ، فالسلسلة لا يمكن قطعها وهي بالاضافة لذلك محروسة الآن بخمس سفن قوية أثبت ملاحوها قدرتهم الشيطانية قبيل فترة قصيرة أمام أعيننا » •

كان خليل باشا في أثناء كلامه ينظر خلسة من طرفه المطرق الى سيده • وكانت ملامح السلطان الشاب الوسيم تعلوها كآبة شديدة لم يتمكن خليل باشا من معرفة باعثها ، أهو الغضب أم الخيبة أم أفكار تراوده في الانتقام•وربما كان الوزير الشيخ في مناقشاته قد أوحى اليه بفكرة ما أوقد يكون السلطان بأساليبه المنطوية على التكتم قد توصل الى حل • ان المدينة لا يمكن الاستيلاء عليها الا بهجوم مزدوج يوجه من المرفأ ومن البر في آن واحد •

وفي اليوم الثاني رميت مائة قذيفة حوالي السلسلة وسقط بعضها على غلاطة ، وقد كان من الواضح ان هذه خدعة لجلب الانتباه • وبالرغم من الخوف الذي سببته اهتزازات الانفجارات لم يستطع الاهالي مقاومة الرغبة في اعتلاء الاسوار الواطئة المطلة على الميناء لرؤية المفاجأة المرعبة الجديدة التي أعدها العدو لهم • ولكن ما شاهدوه لا يمكن أن يكون عمل انسان ، ولا بد أن تكون هذه المعجزة المميتة من صنع قوى شريرة خارقة • فهناك على التل وراء غلاطة وعلى مرأى من قصر بلاشيرناي وأسوار المدينة شاهدوا

سفنا تبحر على الارض عشرون منها بل ثلاثون أو أربعون سفينة ، استطاعوا عدها الواحدة بعد الاخرى كانت أشرعتها منتفخة وتسير ببطء ، ببطء جدا ولكن بوثوق وانحدرت الى مرفأ الخليج الذهبي • وها قد بلغ عددها أربعين بل خمسين لا بل ستين سفينة • لقد نجحت فكرة السلطان محمد الجنونية ، وبالسرعة التي اشتهر بها توصل الى ما أراد تنفيذه بليلة واحدة • بالرغم من أن من المحتمل أنه كان يعد خطط ذلك سرا منذ أمد بعيد • ولا أحد يدري حقيقة الامر • فقد رصفت الطريق بالخشب الذي طلي بشحم الاغنام والبقر عبر غلاطة وسحبت السفن التي وضعت على عجلات عليه مسرعة على الارض، فسحبت الثيران بعضها وسحب البعض الاخر الجند المجهزون بالبكرات • ووضع قائدان في مقدم السفينة ومؤخرتها وفتحت الاشـرعة للاستفادة من الرياح • ورافق مسير السفن على الارض وانحـدارها من التـل صـراخ الاتراك المتهيجين ، وأناشيدهم التي أطلقوها بنشوة الظفر • وقد تم في ليلة واحـدة نقـل ثمانين سفينة ذات ثلاثين مجذافا من البوسفور في روم ايلي حصار ، عبر البر الى خليج القرن الذهبي وقد كان هـذا انجازا من أروع الاعمال السوقية • فقد توفق السلطان الان في ارغام اليونانيين على الدفاع عن كافة أضـلاع مثلثهم المسور عوض ضلعين فقـط • وقد حصر الجنويين في غلاطة بوضع يمنعهم من اسداء المعونة الى المطوقـين فيما اذا رغبوا في ذلك ، وتمكن السلطان بذلك من تقصير مواصلاته بين معسكرات الجيش وروم ايلي حصار بدرجة كبيرة • ولم يكن السلطان ليستطيع انجاز عمل كهذا لولا معونة الجنويين الذين ساعدوه بالاضافة الى سماحهم له برصف الطرق عبر مدينتهم ، ببيعه الحبال والعجلات وشحم الاغنام •

وهكذا كان عدو قسطنطين عدوا غنيا قويا داهيـة ، بينما كان موقف جيرانه المسيحيين مليء بالغدر والطمع ، وقد كانوا كما أثبت التأريخ ومرور الزمن قصيري النظر جدا •

ووقف الامبراطور وجيوستنياني خلف جدار السور المشـرف عـلى

القرن الذهبي ، وكان ذلك في اليوم التالي لوصول السفن التركية اليه عن طريق البر • ومن بين جميع الاسوار المحيطة بالمدينة كان هذا هو الجزء الاوطأ والاضعف • ولم يكن هناك في الواقع سور فيها حيث اعتبر البحر والمرفأ حماية كافية • والان رأى اليونانيون أمام أعينهم هذه الحماية يقضى عليها ، فقد كانت السفن التركية تعوم في مياه لم يسبق لسفن معادية أن اقتحمتها قط • وتمتم جيوستنياني : « يجب أن تدمر » وكان رصيف غلاطة الذي ينظرون اليه مسرحا لنشاط كبير ، فقد شرع الاتراك عند انبثاق الفجر ببناء جسر قوارب عبر الخليج من غلاطه الى نقطة تقع أمام سور المدينة ، وعلى مبعدة منه الى الشمال • واصبحوا الان يربطون براميل النبيذ سوية بالحبال• وكما يعمل النمل على تل النمل كانوا يسرعون جيئة وذهابا يحملون الاحمال وينقلونها وينزلونها •

قرر الامبراطور وجيوستنياني ما ينبغي عمله بعزم صارم • وأرسل الامبراطور حارسه نيقولاس لدعوة الرجال الاثني عشر الذين يديرون الدفاع للاجتماع به ، وخلال ساعة كان الكل مجتمعين في القصر ، وانعقد الاجتماع بهدوء وسرعة وكتمان دون فخفخة أو مراسيم • وبعد أربع ليال ـ وكنتيجة لهذا الاجتماع ـ قام المدافعون بهجومهم المقابل • وكانت خطتهم التي اقترحها جيمس كوكو ، وهو قائد من البحر الاسود ، تتضمن القيام بغارة لحرق سفن العدو • وقد تطوع العدد اللازم من الاشخاص وتطوع كوكو نفسه لقيادتهم في هذه الغارة • وقبل الفجر بساعتين تحركت سفينتان امبراطوريتان وبرفقتهما شونتان للبنادقة كلها مسلحة بصورة جيدة وتحمل الرجال والمعدات الضرورية لحرق الاسطول التركي • شرعت السفن بالحركة دون صوت من الرصيف اليوناني ، ولكن عند خروجها رميت شعلة من برج غلاطة • ووقف الملاحون جامدين رافعي مجاذيفهم ، لكن كوكو المتلهف للاستمرار رفض اعتبار الشعلة انذارا واندفع على رأس الاخرين متوجها نحو السفن التركية التي كانت تبدو هادئة وغير منتبهة في المرفأ المظلم•

وفجأة هدرت المدافع وانبعثت الحياة في السفن التركية • وتدمرت فورا سفينة كوكو التي كانت في المتقدمة وقتل كوكو ثم هوجمت أكبر الشوان • فاضطر ملاحوها الى التخلي عنها • وبدا واضحا أن بعض الجنويين في غلاطة قد نقلوا تفاصيل الخطة الى السلطان محمـد • فـكانت ضحكات الاتراك الساخرة من على سفنهم تدوي أثنـاء الليل • وبقي للمدافعين سفينتان فقط هاجمتها ثمانون سفينة تركية راسية في المرفأ بنيران مدافعها ، لكن السفينتين قاومتا بمدافعهما بالرغم من التفوق المعادي الساحق • ولم يستطع العـدو الاستيلاء عليهما واستمر القتال الى الفجر وعندها عادت السفينتان بملاحيها الى المرسى • ولم يعد ملاحو السفن المفقودة وقد شاهدهم ملاحو السفن الاخرى يسبحون نحو الشاطىء وتبين أخيرا أن أربعين منهم مفقودون • ولم يذهب الامبراطور الى فراشه طيلة الليل وركع على ركبتيه أمام الايقونة يتضرع الى العذراء أن تنقذ حياة هؤلاء الاربعين • وبينما كان راكعا طرقت سمعه صرخة رعب حادة ، فقد حملت خادمة يونانية الفطور الى سيدها الذي كان يقوم بواجب المراقبة على السور الى جنوب القصر وكانت هي مصدر الصرخة التي سمعها الامبراطور وسمعها الآخرون أيضا من الزوجات والامهات اللواتي خرج رجالهن في تلك الليلة ولم يعودوا ، فهرعوا الى الاسوار ونظروا برعب عبر المرفأ ، فكان هناك على الساحل المقابل ، أربعون رأسا مقطوعا معلقا ، كل منها على عمود مرتفع ، فعـلا عويل اليونانيين المتجمعين عـلى الاسـوار • ونظر الامبراطور من ظهر جواده عبر المرفأ بعينين حزينتين ، وخلال وقوفه هناك وحيدا ، وقد أخذ الحزن منه ماخذه انتبه الى قعقعة درع ثقيل عاد به الى دنيا العمل ، واصدار القرارات • وانتصب الى جانبه غابرييل تريفيسالو وهو قائد بحري من البنادقة يقوم بقيادة سفن اليونانيين • وكان رجلا قصـير القامة ممتلىء الجسم، فيه غلظة، وقد شاب البياض لحيته الحمراء بتأثير عناء البحر ، مما جعله يبدو أكبر مما هو في الواقع • وكان وجهه محتقنا من الغضب ، وصرخ بوحشية : « اننا سنعلق مئتي رأس » بعد انحناءة بسيطة برأسه احتراما للحاكم اليوناني • ولم يكن يطلب السماح بـل كان يخبر عن خطـة قرر

تنفيذها فقد أسر مئتي تركي قبل بضعة أيام في المعركة البحرية بمدخل المرفأ ، وكانوا لا يزالون أحياء في الاسر ، وقبل ظهر ذلك اليوم وكعمل مقابل تم تعليق مئتي تركي على أوتاد فوق الاسوار اليونانية المقابلة لغلاطة .

وقال الامبراطور بأسى : « ولكن هذا لن يعيد الحياة الى أبطالنا ، قرة عيون والديهم وزينة شباب مدينتنا » .

وكان قلب الامبراطور مليئا بالهم فقد وصل أهل المدينة الى قرارة اليأس .



١٧

صمود المدافعين

تم بناء الجسر التركي الجديد. واستعمل في بنائه ١٠٠٠ر١ برميل نبيذ ربطت سوية ، ووضع عليها الممر الخشبي الصلب • وعبر هذا الجسر العائم شرع الأتراك بنقل المدافع الضخمة فأخذت السفن الثمانون التي وصلت تفرغ حمولتها من سلالم التسلق ، وكان على اليونانيين الان أن يدافعوا عن أضعف أسوارهم بالاضافة الى الاميال الستة من الاسوار البرية القوية جدا والتي تعرضت لتدمير أشد ، من كل القوى التي يستطيع العدو حشدها • ولم يسبق للمدينة في تاريخها قط أن تعرضت لخطر كهذا • وكان المدافعون على استعداد للموت ولكنهم أرادوا انقاذ امبراطورهم الذي عليه أن يترك

المدينة قبل فوات الاوان • وأعدوا سفينة حاضرة للاقلاع به ضمن ساعة اذا تأخر عنها أصبح انقاذه مستحيلا • وعندما جاء أتباعه المخلصون الى القصر وبينوا اقتراحهم اكتفى بهز رأسه ، فقد منعه انفعاله من النطق • وكان معهم جيوستنياني الذي الح عليه بالذهاب ، وحاول هذا العملاق الجنوي اقناعه بانه يستطيع الحصول على المعونة من الخارج والذهاب الى المورة (جنوب اليونان) وعرض محنة المدينة هناك • وبينما كان رفيقه في الدفاع يتكلم ، اغرورقت عينا الامبراطور بالدموع • وصرخ جيوستنياني وقد بدا الانفعال العاطفي لاول مرة على وجهه المتصلب بقسوة الطقس : « يا سيدي ان قيامكم بذلك هو في مصلحة القسطنطينية » ولكن لم يتمكن أحد من اقناع الامبراطور فقد أجاب بقوله : « اطلبوا الي عوض ذلك البقاء معكم فانني مستعد للموت من أجلكم » • لقد كان راعيا صالحا حاول افهامهم ان مسؤوليته تتطلب التضحية في سبيل رعيته •

وآنئذ كان أعظم حصار عسكري في التأريخ يقترب من ذروته الفظيعة الضارية • وفي ٧ أيار (مايو) جرب السلطان القيام بهجوم ثاني وشعر أهالي القسطنطينية بنذر الشر وكانت السفن في حالة حركة ولدوي المدافع صدى مرعب جديد ، لكن الهجوم لم يبدأ الا بعد الغروب بأربع ساعات • وحينئذ حاول ٣٠٫٠٠٠ تركي فتح ثغرة باقتحام الاسوار بسلالم التسلق قرب الباب المعوج فقاوم المحاصرون ، وقبيل الفجر انسحب العدو • وفي ١٢ أيار زج السلطان محمد في المعركة بـ ٥٠٫٠٠٠ محارب واستهدف العدو هذه المرة باب أدرنة ، وكانت أصوات وأهازيج المهاجمين تبعث الرعب في النفوس ، فاعتقد الذين داخل الاسوار أن النهاية قد حلت • ولكن المدافعين نجحوا ثانية في صد المهاجمين موقعين بهم خسائر فادحة • وانقلبت الشجاعة الى همجية وانقلب الرجال الاخيار الى أبالسة شر • وعلى الرغم من أن أي رأس يوناني أو ايطالي يظهر فوق الاسوار كان يرمى الا أن ذلك لم ينه الاشتباك وجها لوجه • فقد هاجم يوناني حامل راية السلطان ـ عامر

بيك ـ في اشتباك جرى مع فئة تركية منعزلة وقد قتل عامر بيك الذي صمد بمفرده • ولما علم الاتراك بذلك كرّوا راجعين بالرغم من تأكدهم بأن ذلك معناه الموت المؤكد وكان أول ما قاموا به هو قتل اليوناني الذي قتل عامر بيك •

وقامت السفن التركية بهجمات على السفن المسيحية في المرفأ وحاولت تدمير السلسلة التي تشد المرفأ ولكن لم يكن للاتراك قدرة التغلب على البنادقة شياطين البحر •

واستعمل كل سلاح ضد الاسوار ، ومزجت الاساليب الحربية القديمة مع ما كان يعتبر عصريا في تلك الفترة ، فاستعملت المدافع مع المنجنيقات البدائية التي كانت تقذف الحجارة المدفعية تقذف حممها مع استخدام النيران السائلة المقذوفة بوسائل أخرى • وكان الرصاص ينهال على البشر والجياد ممتزجا بأصوات أكباش الحصار التي كانت تنطح الاسوار • ولم يكن أحد في المدينة المنكودة يتوقع أن يستعمل الاتراك السلاح الجديد الذي استعملوه أخيرا ، وهو برج يعادل ارتفاعه ارتفاع أي من الابراج الاربعة في باب القديس رومانوس ، وكان برجا متحركا شرع بالتقدم نحو المدينة ببطء وعزم مرعبين • ولو كانت دبابة عصرية قد ظهرت فجأة لما سببت رعبا أكبر للسكان • وأمر جيوستنياني الاهالي بالابتعاد عن الاسوار ولكن الرعب وحب الاستطلاع منعهم من ذلك فوقفوا كالمشدوهين يحملقون بخوف الى أن اقترب الوحش منهم بحيث استطاعوا رؤية النار في عينيه ، فقد كان برج حصار ذا ثلاثة طوابق يسير بعجلات فوق أرض صلبة ، وفي كل طابق مزاغل ـ تؤلف عيونه ـ للمدافع ولرمي السهام • وعندما توقف ، ركض الجند من طابقه الاسفل وأجسامهم مغطاة بالاغصان والاخشاب التي القوها في الخندق واستمروا على ذلك جيئة وذهابا • والقي سلم من الطابق الاعلى نحو سور المدينة فشكل شبه جسر ركض عليه الجند ذوو الطرابيش الحمر ، ومن كل مزغل انفتحت نيران مدافع شديدة • والى الوراء كان السلطان محمد حيث كان يمكن تشخيصه ورؤيته بوضوح بعمامته الكبيرة البيضاء ، وكان

على صهوة جواده يحث جنوده على التقدم بفخر وحماس • واعتقد الناس أن هذه لا بد ان تكون النهاية ، وركض الشيوخ والنســاء الى دورهم وهم يرتعدون ، وقد جمعوا الاطفال بالقرب منهم •

وطوال النهار استمر الوحش الميكانيكي يضرب ضرباته ذات الرعب المثلث فقد كان ينطح ويحرق ويرمي ، ورأى الامبراطور وجيوستنياني اللذان كانا يقفان كتفا لكتف أحد أبراج باب القديس رومانوس يترنح ولكن لم يكن بوسعهما عمل شيء فقد كان البرج القديم يرتج ويهتز • وعند حلول الظلام مباشرة سقط حطاما على الارض • ان هذه فى الحقيقة هي النهاية •

وخـلال نصف ســاعة شرع المدافعون بالعمل واستدعي كل جنـدي بوسعه ترك الاسوار في الاماكن الاخرى وعملوا معا طوال ساعات الظـلام فانجزوا عملا خارقا حيث طهروا الخندق وأعادوا بناء البرج الى مستوى يسمح بالوقوف خلفه ، ومن ثم قاموا بجرأة خارقة بحرق البرج التركي الخشبي حتى دمروه تماما • لقد كان عملا خارقا في ليلة واحـدة • وفي صباح اليوم التالي لذلك غضب السلطان غضبا شديدا ، حيث كان يعقــد آمالا كبيرة على انجازات الامسية السابقة ، وكان الوزراء والقادة يرتعـدون خشية سخطه •

وبقي لديه سلاح واحد كان يحتفظ به حتى الآن احتياطا • فاذا كان الحجم وحده يكفي لتدمير العدو فان المدفع الذي صممه (أوربان) الهنغاري سينهي حصار القسطنطينية • وكان هذا ، المدفع الذي بني له معمل صهر خاص في أدرنة ، واستغرق صنعه ثلاثة أشهر كما استغرق نقله مسافة مئة وخمسين ميلا الى القسطنطينية شهرين من الزمن • وكان وزنه ٣٠٫٠٠٠ رطل أي ١٣٤٠٠ كيلو غرام • وتطلب لنقـله ربط ثلاثـين حافـلة معـا ، واستخدم مئة ثور لسحبها ، وسار أمامه مئتان وخمسون عاملا لتسوية الطريق الوعر وتصليح الجسور التي يحتمل سقوطها اذ لم تكن طرق ذلك العهد شبيهة بالطرق العامة الحالية وسار مئتا رجل على كل من الجانبين للمساعدة

في موازنة الحمل ، اذا اختل توازنه أو مال الى أحد الجانبين . وكان وزن قنبلة هذا المدفع الضخم ٦٠٠ رطل أي ٢٧٠ كيلو غرام ومدى رمي المدفع ميل واحد ويمكن الشعور بالانفلاق في دائرة نصف قطرها اثنا عشر ميلا . واذا كان برج الحصار المتحرك دينا صورا[٣٤] ميكانيكيا فقد كان هذا المدفع بالمفهوم القديم يعادل قنبلة ذرية . ولكنه لم يكسب المعركة . وكمدفع لم يكن مدفع اوريان هذا موفقا اذ لم يكن مدمرا بالدرجة التي كان يتوقعها الاتراك المستبشرون أو اليونانيون الخائفون فقد كان كبيرا جدا وتطلب املاؤه ساعتين وخصص لخدمته خمسمئة جندي وكانت العملية معقدة بحيث لا يمكن رمي أكثر من سبع قنابل في اليوم . ويقال انه تحطم بعد رمي القنبلة الرابعة . وقال مؤرخ تركي ان الانفجار الذي حطمه مزق مخترعه اربا اربا ولكن من يدري ؟ فقد يكون للسلطان الغضوب يد في ابادة المخترع في احدى فورات غضبه .

كان السلطان محمد مثل رجل وحشي ، اذ كان يلعن الذين زينوا له الفتح القريب وكان يصب جام غضبه على الجنود والضباط كما يصبه على العلماء الذين خدعوه ببرجهم وبمدفعهم الذي عدوه صانع المعجزات . ولكن المدافع التركية كانت ما تزال معبأة طوار الاسوار البرية واستمر المزيد منها على القدوم عبر الجسر من غلاطة ، وبقي صوت المدافع يصم الاذان في جميع الجهات وعجز الرجال عن التفكير . أما النساء فكن يصرخن لانهيار أعصابهن من الخوف .

وكان الاتراك يتعلمون من تجاربهم فقد انفجر المدفع الضخم نتيجة ارتفاع حرارة المعدن ولذا أخذوا يصبون الزيت في فوهة المدافع بعد رمي كل قنبلة . وتوصلوا كذلك فيما اذا عجزت القنبلة المرمية من اتجاه واحد عن تدمير السور فبالامكان تدميره برمي الابراج من اتجاهين متعاكسين .

---

(٣٤) الديناصور : حيوان ضخم من الزواحف المنقرضة .



وكان السؤال الذي يتردد هو الى متى تستطيع الحامية الصغيرة داخل الاسوار الصمود ؟ .

وكان على قسطنطين أن يمد يده الى أموال الكنيسة لدفع رواتب جنوده المرتزقة من البنادقة والجنويين وقليل غيرهم من أنحاء الغرب الاخرى، وهم جنود محترفون كانوا يخلصون له لانه كان يدفع ثمن الاخلاص . وكانوا يقاتلون لان القتال مهنتهم . وصرخ اليونانيون الذين ثاروا على الاتحاد مع الكنيسة اللاتينية :« يا للعار » ورفضوا الاعتراف بأن الاموال أخذت لدفع الثمن اللازم لانقاذ تلك الكنيسة من أعدائها . أما الدوق الاعظم نوتاروس الذي كان في سريرته مع هؤلاء اليونانيين المتمردين ومستعدا للانضمام الى أية كتلة تعمل ضد الامبراطور لاسباب دينية أو سياسية ، فقد أخذ يخاصم جيوستنياني . وعندما طلب جيوستنياني الى نوتاروس أن يزوده بمدافع اضافية للدفاع عن باب القديس رومانوس رفض نوتاروس ذلك بوقاحة . وصرخ جيوستنياني : « أيها الخائن اني لا أدري لماذا لا أضرب عنقك » فأجابه نوتاروس : « لانك جبان » . وكانت أعصاب الكل متوترة أشد التوتر . وفي الشوارع كان البنادقة والجنويون يتقاتلون فيما بينهم . واضطر الامبراطور نفسه الى الذهاب الى المدينة للتدخل وخاطبهم متسائلا أليست الحرب في ذاتها شرا كافيا يكفيهم مؤونة التقاتل فيما بينهم ، ورجاهم تسوية خلافاتهم وأن يعودوا ثانية اخوانا . وبالتدريج وتحت تأثيره الرادع هدأ الجانبان واستتب النظام . وفي الوقت نفسه استمرت المعركة واستدعي النساء للمساعدة بترميم الاسوار ليلا وعاونهن بذلك الاطفال الكبار والشيوخ والرهبان . وانتزعت شواخص القبور من المقابر وكدست للاستفادة منها في سد ثغرات الاسوار . وملأت أنات الجرحى المدينة باليأس .

وأحدثت مجددا ثلمة بالسور الخارجي ، وحاول الاتراك ثانية ردم الخندق بالقاء البراميل والاغصان وجذوع الاشجار فيه . ولم يتورعوا عن دفع جنودهم الى موت محقق لانجاز ذلك وشوهد كبار ضباط الاتراك

يعقبون جنودهم ويضربونهم بالسياط التي كانت في أيديهم واقتحم الاتراك الخندق وسقطوا فيه ، الواحد تلو الاخر جثة فوق جثة مدفونة بين الانقاض • ومرت ستة أسابيع على حصار المدينة واستمرت المدافع تهدر طوال المدة ليل نهار • وعادت السفينة الصغيرة التي كانت قد اقلعت بشجاعة نادرة في شهر نيسان ، ولم تحظ من بحثها الا بخيبة مريرة • فلم تكن هناك سفن ، وكانت السفرة دون طائل ، لكن الرجال الشجعان الذين تطوعوا للذهاب عادوا الان بمحض ارادتهم ليقاتلوا ثانية • وكان لسان حالهم يقول : « سواء سقطت المدينة أم لم تسقط ، وسواء أكانت النتيجة موتا أم حياة فان العودة واجبة علينا » •

وتركز زخم المدفعية التركية الكامل الان على باب القديس رومانوس الواقع على نهر ليكوس • وفي يوم ٢٣ ايار سقطت أبراج الباب الاربعة وأصبحت حطاما ونجح العدو في دكها وتسويتها بالارض •



١٨

الزعيمان المتقابلان

في يوم ٢٤ أيار صمتت المدافع صمتا غريبا • وتربع السلطان محمد على بساط واضعا سيفه اللامع على مقربة منه • وقد فرشت سجادته بالقرب منه أيضا ، وللمرة الاولى شعر السلطان أن النصر في متناول يده ، ولكن ثمن النصر سيكون باهظا • كانت ستائر خيمته الحريرية مفتوحة ومن وراء حرسه المسلح كان يستطيع رؤية عمامات الانكشارية البيض ، ان دخول القسطنطينية سيقضي على ربع هؤلاء المحاربين الشجعان وربما على نصفهم ، ونظر اليهم نظرة حساب لا نظرة أسى •

وبرزت صورة قسطنطين بعينيه الزرقاوين ولحيته المجعدة بينه وبين جنده • ان هذا المسيحي كان يعلم ان من المستحيل أن ينـال النصر لكنه استمر على القتال ، ولكن هل سيستمر ؟ والتقى حاجبا السلطان بتقطيبة • وبنظرة المحارب المستخفة والهازئة برجال السلم قرر خطة جديدة • وفجأة انتصب واقفا واستدعى اثنين من قادته برتبة باشا •

وبعـد ساعة تقريبـا كان رجـلان معممان يرتديان الملابس الثمينة ويمتطيان جوادين عربيين يركبان عبر المعسكر التركي نحو باب القديس رومانوس • ركب في مقدمـة موكبهما منادون يحملون أبواقا طويلة والى جانبهم كان يعدو سعاة يرتدون الملابس الخضراء •

كان الامبراطور وجيوستنياني سوية على الاسوار المطلة على المرفأ عندما وصل نيقولاس حارس القصر واقترب منهما ووقف خلفهما بتأدب ، وأشار له قسطنطين أن يتكلم • وقال نيقولاس ان السلطان قد أرسـل سفيرا وان موكبه يقترب الآن من باب القصر • وكانت هناك ومضة انفعال ربما كان باعثها الامل في وجهه الذي كان خاليا من الانفعالات عادة • ونظر كل من الرجلين الى الآخر نظرة نافذة • كان جيوستنياني بوجهه المحمر وصحته التامة وبنيته القوية يقف أمام الامبراطور الذي كان يبـدو وكأنه شبح في وسامته التي طغى عليهـا الاعياء ، ولم يكونا بحاجة الى كلمـات للتفاهم • وأدار قسـطنطين رأس جواده وركب مسـرعا نحو قصر بلاشيرناي وهو ما يزال مرتديا درعه وقـد أنهكه تعب الليلة الماضية • ووصل فى الوقت المناسب لاستقبال السفير التركي • وقد وجد خلافا لما كان يتمنى موفدين عوض موفد واحد ولم يكن بينهما صديقه خليل باشا •

وتكلم أول الوزيرين مبينا أن سـيده السلطان العظيم يقـدم تحياته الى الامبراطور ، وان السـلطان يعتقد أن من المهم توصـل الحاكمين الى تفاهـم ، ومن المستحسن وضع حـد للقتـال لاسيما وان الوقت قصير • وتوجه نظر الموفد نحو أربعـة أكوام كبيرة من الانقاض كانت من قبـل

أبراجا شامخة ، وأعلن أخيرا مشيرا الى لفة في يده : « ان هذه هي شروط السلطان للتسليم » •

ولم تكن الشروط رديئة • فاذا غادر الامبراطور المدينة رفع السلطان محمد الحصار عنها ، وسيقطع الامبراطور أرضا قرب المورة (جنوب اليونان) وبهذه الصورة يعيش الامبراطور والسلطان بسلام • وقال الوزير أيضا ، ان السلطان سيعطي الامان لجميع الاهالي ويتعهد بأن يسمح لمن يرغب في مغادرة المدينة أن يغادرها بسلام • ولكن بقيت العقبة التى لا يمكن تخطيها ، وعلى الرغم من أنها لم تشرح بكلمات كثيرة ، فان السلطان محمد الثاني يجب أن يصبح سيد القسطنطينية التي كانت منذ ألف عام معقلا للعالم المسيحي ، وستنقلب بموجب ذلك الى مدينة اسلامية •

ومن أول نظرة الى السفيرين الانيقين بشكل يسترعي الانتباه ، قرر الامبراطور قسطنطين ما سيكون جوابه • فمهما كانت العروض مغرية ومهما كان الامان الذي تضمنه لشخصه والاستقرار لما تبقى من حياته ، وكذلك ما ستقدمه من طعام وضمان لرعيته المعذبة التي كانت بأمس الحاجة اليهما ، فانه مع كل ذلك لن يستطيع تسليم مدينته الى الاتراك • ومع ذلك كان يجب أن تسود بين الدبلوماسيين المراسيم • وأنصت قسطنطين لسفيري السلطان بصمت تام • وأحنى رأسه انحناءة بسيطة بعظمة ملكية عندما غادر السفيران •

واستدعى الامبراطور النبلاء اليونانيين وذوي المراكز العالية من البنادقة والجنويين لكي لا يتحمل بمفرده مسؤولية المذبحة المؤكدة التي ستقع عما قريب • واتفق اليونانيون واللاتين على وجوب رفض عروض السلم التي قدمها السلطان وعلى الاستمرار في القتال الى النهاية • واتفقوا كذلك مع الامبراطور على تعيين فرانزا سفيرا لهم لينقل جوابهم للسلطان • وعندما بقي الامبراطور وحيدا بعد مغادرتهم ركع كعادته أمام الايقونة ،

ولم ير أي بصيص أمل ، لكن اعتزازه بكرامته جعله يفضل ميتة الشهيد على اذلال المدينة •

وضرب السلطان محمد الارض بقدمه بغضب جنوني عندما نقل اليه جواب الامبراطور • أن فتح القسطنطينية أصبح الآن بالنسبة له أمرا يعادل حياة جميع شعبه • وكان خليل باشا الوزير الاول ما يزال يناقشه بخبث ليثنيه عن عزمه ، ولكن كبار رجال الدولة الآخرين كانوا صفا واحدا وراء السلطان في وجوب الاستيلاء على المدينة • ان فتح القسطنطينية وسيلة مؤكدة لكسب رضاء الله ومغفرته ، ألم يقل الرسول الكريم (صلعم) مبشرا : «لتفتحن القسطنطينية ، ولنعم الامير أميرها ولنعم الجيش جيشها » •

عيّن السلطان محمد متوكلا على الله يوم الفتح وكان ٢٩ أيار اذ تقرر القيام بحملة على المدينة من جميع الجهات في آن واحد وتسديد الضربة القاضية • وساد المعسكر فورا نشاط محموم • فان الاستعدادات العسكرية التي استغرقت أشهرا والتعاليم الدينية التي رافقت الاشخاص طوال حياتهم ستوضع كلها فى محك المعركة الحاسمة • وفي مساء يوم ٢٧ أصدر السلطان أوامره النهائية ، وركب اثنا عشر مناديا يمسكون العنان بيد والبوق الطويل باليد الاخرى ليعلنوا للقطعات يوم الهجوم • وكما تقضي الطقوس الاسلامية طهر المحاربون المسلمون أبدانهم بالغسل وأدوا الصلاة وصاموا في اليوم الذي سبق الحملة النهائية • وعندما غابت الشمس تقدم الدراويش المولويون وأخذوا يرقصون رقصات الذكر بين خيم الجنود ويدورون بأرديتهم الطويلة السوداء وعماماتهم المدببة • وكانوا يبدأون ببطء ثم تزداد سرعتهم أكثر فأكثر دائرين ، كل منهم حول الآخر ومن ثم حول الخيم وقد انفتحت أرديتهم بزاوية عمودية على أجسامهم • لقد كانت رقصاتهم تمثل الوعود المغرية بالخلود وتؤكد على أن من يستشهد في سبيل الله ستستقبله الملائكة باسطة اجنحتها وتنقله الى جنان الخلد التي تجري من تحتها الانهار حيث سيخلدون مع الحور العين •

واستثير الجند عاطفيا الى حد يقرب من الجنون ووصلوا الى مرحلة تتساوى بها لديهم الموت والحياة في مرضاة الله وتردد في أعماقهم • الله أكبر ـ أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله وبالاضافة الى أحاديث ووعود الدراويش غير الملموسة أضاف السلطان محمد مكافآت مادية ملموسة • فوعد الذين يستولون على المدينة بمنحهم جميع نفائسها • وأعلن السلطان محمد : « ان المدينة والابنية لي • والاسرى والاسلاب وكنوز الذهب والمجوهرات للجند الهاجمين » • وأعلن أنه سيمنح لاول جندي يتسور الاسوار أغنى مقاطعاته وقال بصوته الجهوري « ان المقاطعات الغنية في امبراطوريتي كثيرة ، وسأعين الجندي الشجاع الذي سيكون أول من يتسور أسوار القسطنطينية حاكما على أغناها وأجملها » وأضاف بصوت مرعب : « ومن يهرب من المعركة فلن يفلت من عقاب السلطان ولو كانت له أجنحة يطير بها » • وتأججت نيران المعسكرات من غلاطة الى أبعد نقطة على البحر على شكل هلال من اللهيب كرمز للدمار •

وفي داخل مدينة القسطنطينية كانت خطة السلطان قد كشفت بسرعة تعادل السرعة التي عرفت فيها في معسكره • وقبل فجر يوم ٢٨ أيار كان الامبراطور على صهوة جواده في تفقده المألوف للابراج ، وكان يحدث الخفراء ويشجعهم • وفي هذا الوقت المحفوف بالمخاطر كان صديقه الحميم فرانزا راكبا الى جانبه • وبعد أن أنهيا الجولة تقريبا كانت أشعة الفجر الوردية تزين السماء الشرقية وعلى مقربة من الباب المعوج قرب القصر نزلا عن جواديهما • وأخبرهما الحراس في البرج عن سماعهم أصواتها خافتة طوال الليل خارج الاسوار وهمهمة تدل على تنقلات كبيرة • فقد كان الاتراك يقدمون معداتهم بصمت وأصبحوا الان خلف الخندق مباشرة ولكن لم يسمع الحراس صوت أي رجل أو صرخة عابرة ، في الحقيقة لم يسمعوا شيئا • لقد كان عرضا أبكما رائعا جرى في الظلام • ومن على البرج حيث كانا بعيدين عن النظر استطاع الامبراطور وفرانزا تميز المنظر العسكري

الهائل الذي كان يمتد على التلال وما وراءها على امتداد البصر وكان الجند والمدافع ما يزالون يتقدمون كظلال هائلة غير بشرية .

وعند عودة الامبراطور الى قصر بلاشيرناي ارتدى رداءه القرمزي واستدعى لمواجهته للمرة الاخيرة نبلاء اليونانيين وأشجع رجال حلفائهم اللاتين . وكان فرانزا الى يمينه عندما شرع يتكلم الى هؤلاء الرجال الذين وقفوا الى جانبه دوما باخلاص . وتكلم عن القسطنطينية ملجأ جميع المسيحيين وقرة عين اليونانيين الشرقيين ومبعث فخرهم وملكة المدن التي كانت فيما مضى من الازمنة تحكم جميع أمم الارض . وان العدو الذي يواجههم جمع من المتوحشين الخالين من الذكاء وقد أرادوا بالصراخ والضجيج اخافة الغير واخضاعهم وأضاف بأسى : « اننا قليلون عددا بالنسبة اليهم ولكننا ذوو مهارة في الحرب ولا نقل عنهم شجاعة وعزيمة أو شهامة » . والتفت الى الجنويين والبنادقة وخاطبهم بصورة خاصة شاكرا لهم بحرارة الخدمة البطولية التي قدموها . وأصغى كل من الحاضرين الى كلماته بصمت ووجوم ، ولم يكن لقسطنطين أي أمل بالنصر في قرارة نفسه ولكنه بعث في نفوسهم قبسا من الايمان والشجاعة اللتين كان يتحلى بهما وكانت كلماته تنبعث عن الاخلاص والاباء والايمان ولم تكن لديه وعود بالشهادة كما كان يتوقع المسلمون ولا ما يكافئهم به سوى الاحترام . لقد قاتلوا معا فترة طويلة وببسالة وقد صمدوا بوجه حملة اثر حملة قام بها عدو باسل جريء وكانوا ما يزالون هنا غير مندحرين . وعندما تعانق الجميع من قادة خشنين وارستقراطيين أنيقين وقبلوا امبراطورهم ، وانهمرت الدموع من عيون أصلب الرجال الموجودين هناك وهتف الجميع : « اننا جميعا فداء لوطننا وللمسيحية » .

وسار عصرا موكب مهيب عبر شوارع المدينة الى كنيسة سانتا صوفيا وعلى رأسه رئيسا الكنيستين البطريق الارثوذكسي والكاردينال الروماني . وكان هذا تقديرا للامبراطور الذي رجاهما أن يواجها الازمة معا وتبعهما القسس والرهبان والنبلاء والجند . وألقيت جميع الخصومات جانبا في يوم

الايام هذا • وبروح يسودها الوئام والانسجام التام دخل أهل القسطنطينية سوية أجمل كنيسة في العالم المسيحي للمرة الاخيرة • وكان هذا المشهد الاخير في ألف سنة من المراسيم البيزنطية الزاهية • كانت الكنيسة العظيمة ملأى • وغمرت مئات المصابيح جميع أرجائها بنور مزيج • وفي أعلى القبة الذهبية كان الهيكل العظيم للسيد المسيح منحنيا فوقهم مطلا ربما على أتباعه ربما يكون للمرة الاخيرة ، وكان هناك قسس ورهبان ونساء يحملن الشموع وجند يرتدون دروعهم كانوا قد تركوا الاسوار لينالوا راحة لمدة ساعة وقد جاؤا للصلاة ، لقد كانوا جميعا هناك ليضرعوا الى الله أن ينقذ مدينتهم ومن كل ناحية من الكنيسة ارتفعت الاصوات بصلاة عميقة وتليت الصلوات أولا باليونانية ، ثم باللاتينية ، وتقدم كل من باستطاعته الوصول الى المذبح المرتفع الى الامام بيدين مثنيتين للتبرك بجسم المسيح • وعندما انتهى القداس لم يرغب أحد في ترك الجدران المقدسة وهذه الرفقة المتزاحمة مع اخوانه البشر • وللمرة الاولى منذ عدة أشهر كان جميع أهالي القسطنطينية متحدين في سبيل غاية واحدة ، واحتضن الامبراطور القريبين منه عامة كانوا أم نبلاء، يونانيين أم لاتين ، رهبانا أم جنودا ، ثم خرج بمفرده من الكنيسة مرتديا رداءه القرمزي واعتلى جواده وذهب كل قائد الى موضعه المعين ، فقد كان لكل باب أو جزء من السور أشخاصا معينون للدفاع عنه • وكان الدوق الاعظم بوصفه قائد الاسطول العام قد أعطي قيادة أجزاء السور التي تقع على جانب المرفأ ، وكان أحد القلة التي بقيت على عدائها للوحدة بين الشرق والغرب وكان أيضا عدوا لجيوستنياني وحتى للامبراطور • وكان نوتاروس قائد الدفاع عن الاسوار التي كانت مدافعتها أصعب من جميع القواطع وحيث كانت أبدان السفن التركية تبلغ من القرب حدا يجعلها تكاد تمس بيوت المدينة • ودقت أجراس الانذار في المدينة طوال المساء داعية الرجال والنساء والاطفال الى مواقعهم الحربية فمن لم يستطع القتال فليحمل الحجارة الى الاسوار لالقائها على العدو • وجلب بعض النساء الاردية لازواجهن وجلبت أخريات أيقونات لتهدئتهم بالتفكير بالمنقذ •

وبعد منتصف الليل بفترة قصيرة قام الامبراطور وفرانزا بجولة تفتيشية أخيرة في جميع المواقع ، ثم قام الامبراطور ليلا في المضمار المظلم باستعراض قطعاته الضاربة وهي القوة الصغيرة التي كانت ستشغل موقعها في الفسحة بين السورين الخارجي والداخلي . وكانت أبواب السور الداخلي تغلق عند المعركة بحيث لن يستطيع أحد العودة الى المدينة ثانية . وقد أوضح جيوستنياني الموقف لجنوده وكان الاقتراح باتخاذ هذا الاجراء قد جاء من الجند أنفسهم وبمحض اختيارهم فقد توصلوا الى أن واجبهم هو النصر أو الموت ، وكان هذا هو الاستعراض النهائي .



١٩

الفتح

وقبل انبثاق فجر يوم ٢٩ أيار بفترة طويلة ، وبين الساعة الواحدة والثانية صباحا على وجه التحديد علا في وقت واحد متفق عليه صوت واحد مخيف من جميع الطوق المحيط بالمدينة ، وقد رددته حناجر الاتراك في السهل حيث هدر صدى تكبيراتهم التي هزت الارض • وأشعل الدراويش والجنود النار في الخيم باشارة معينة فخلقوا دائرة من اللهيب امتدت من بحر مرمرة الى خليج القرن الذهبي وقالوا عندما قاموا بذلك : « اننا لن

نحتاجها فسننام غدا في القسطنطينية » • وأقسم السلطان محمد ايمانا مغلظة أن هذا هو يوم الفتح ، وأشهد على ذلك الله تعالى والانبياء جميعا ، وروح والده السلطان مراد وقال انه سيفعل ذلك مقسما بحياة أولاده وسيفه •

وعلى أصوات الطبول والابواق وتكبير الجنود بدأ الهجوم • واندفع الجند الصارخون المتحمسون الى الامام وسقط البعض من الاماميين في الخندق وداسهم الذين جاءوا بعدهم في طريقهم الى الامام ولم تكن حركة الهجوم فوضوية غير منظمة ، فقد حسب لكل حركة حساب عسكري دقيق • وأحيطت المدينة في أثناء الليل ، وتم ملء جزء من الخندق ، وكانت السفن التركية قريبة من الاسوار ومستعدة لتجهيز الجند والمدافع وسلالم التسلق في قاطع الاسوار المطل على البحر • وكانت موجة الهجوم الاولى من المتطوعين وهم رعاة أفراد عشائر رحل ، وجلهم غير مدربين ، كانوا مسلحين بالسيوف والرماح فقط وقد جاءوا طمعا بالغنائم والمكافآت • ولم يكن هناك نظام يسودهم ، كما لم يكن عليهم آمرون ، الا انه اذا حاول أحدهم النكوص على أعقابه والهروب كان هناك دوما الى الوراء من الضباط من يمنعه • وكان واجب هذه الكتلة غير المصهرة نصب سلالم التسلق ، وكان الجند الاتراك من ورائهم يقوم برمي حجاب من النبال لحمايتهم • ولكن ذلك لم يكن كافيا فقد صب اليونانيون من على الاسوار النار السائلة والقار المغلي عليهم وسقط الرجال المتسلقون صارخين الى الاسفل وكان الخندق قد امتلأ بجثث رجال يتلوون من الالم وكان هؤلاء بالواقع جسرا تعبر عليهم موجة الهجوم الثانية • وقام بالحملة الثانية المرتزقة المسيحيين وهم زمرة من المغامرين الفاشلين كانوا يعملون جنودا محترفين لدى السلطان • وكانت هذه القطعات منظمة ومدربة وتقدمت طوار الجبهة في كتائب ، قوة كل منها ألف جندي وكان وراءهم الضباط الاتراك لمنع هروبهم أو تراجعهم ، والى الوراء بعيدا كان الانكشاريون الذين تمزق سيوفهم كل هارب وعندما وصل المرتزقة الى السلالم تعرضوا بدورهم لرمي الحجارة والحرق وارغموا على النزول •

وكان المدافعون يقاتلون بضراوة لا تعرف الرحمة ، فانهم لم يذوقوا طعم الراحة منذ أربعين يوما وقد منحهم اليأس القوة • وكان الامبراطور على الاسوار قرب باب القديس رومانوس ، وكان جيوستنياني الذي يقاتل على رأس رجاله بين السورين قرب الباب نفسه مصدرا دائما لالهام جميع الجند ، فقد كان هذا القاطع أكثر القواطع خطورة ، وكان السلطان يوجه اليه أشد الهجوم •

أما الموجة الثالثة للهجوم على الاسوار فكانت مؤلفة من الاتراك المدربين في آسية وهم رجال صغار الاجسام يرتدون عمرات حمرا ومسلحين بالسيوف • وكانوا مقاتلين عنيفين لا يحتاجون لمن يدفعهم الى الامام وهم متحمسون لدينهم وتدوي أصواتهم : « الله ــ الله ــ لا اله الا الله » ولم يحاول أحد من هؤلاء التراجع أو التقهقر ولكنهم فشلوا في تسلق الاسوار •

واستمرت هذه القلة من اليونانيين تتمسك بنجاحها فترمي المئات والالوف الهاجمة من كل موجة جديدة ، واستمروا يسكبون القار المغلي ويوجهون خراطيم النار السائلة وقد كانوا يستخدمون عتادهم القليل بدقة واصابة • ولكن دوي الطبول التركية استمر ، ولم ينقطع نفخ الابواق ، واستمرت المدافع تهدر من السفن والجسر والبر ، وقد ارتفع الدخان بسحب كثيفة في جميع أنحاء المدينة • وصمد الدفاع ساعتين لم يستطع الاتراك التقدم خلالهما عقدة واحدة للحصول على موطىء قدم في الاسوار ، ولكن ثلمة في السور في منطقة باب القديس رومانوس أصبحت الآن بعرض ١٠٠٠ قدم • والى الداخل كان جيوستنياني مع ٢٠٠٠ محارب ينتظرون الهجوم ، وكانت دروع المحاربين الجنويين تسطع ببريق مخيف في ضوء بريق المدافع والمشاعل المقذوفة •

كانت لحظة حاسمة قابلها السلطان بأقصى قوته ، فركب على رأس جنده ودبوسه في يده وعمامته الكبيرة البيضاء تبدو واضحة حتى في الظلام ، وتقدم على رأس خيرة قطعاته التي احتفظ بها للصولة النهائية ، وهي كتائب

الانكشارية ، وكانوا منتعشين نشيطين ولا غرو فقد كانوا أحسن قطعات العالم تدريبا • واندفعوا من الثغرة عبر الخندق الذي كان شبه مردوم وبدت عمراتهم البيض وكأنها تشق موج البحر عند زحفهم نحو العدو ، وكان المنظر يبعث الرعب في نفوس أصلب المدافعين • وقد تكون هذه القطعات ذات الاسم المخيف هي التي غيرت مجرى المعركة •

ولكن الاحتمال الاكثر كان خسارة جيوستنياني • فقد كان اليونانيون ما يزالون صامدين بوجه الانكشارية على الرغم من المقذوفات التي كانت تنهال عليهم من خلف الخطوط وعندما جرح القائد الكبير بسهم ، وانحنى الى الامام من فرط ألمه ، توجه نحو الامبراطور الذي كان على السور وصرخ بصوته المتوجع الذي سمع في ضوضاء المعركة قائلا : « لقد انتهيت » ورفض الامبراطور تصديقه وصرخ مجيبا « ان جرحك بسيط » وكان فقدان جيوستنياني بالنسبة اليه مثل فقدان قلبه وذراعيه • ولكن جيوستنياني هز رأسه وقال بصوت شبه مختنق يسوده الالحاح : « يا سيدي سأتركك وأرجو أن تعطيني المفتاح فيجب أن أدخل الى الداخل » وكم كان غريبا أن يكون جيوستنياني الذي طالب الجند بيمين التضحية والقتال خارج الاسوار المغلقة أول من يحنث بالقسم ويطالب بالدخول ، فقد اعتبر نفسه خارج المعركة ولن يقود بعد • وقام الامبراطور على الرغم من عدم رضائه التام بفتح الباب ودخل منه الرجل الضخم ، وتوقف الجند القريبون عن القتال عندما غاب قائدهم عن الانظار ، وكان العرق يتصبب من وجوههم ودماء جراحهم تصبغ ببطء الاحجار التي كانوا يقفون عليها بلون قرمزي ، وكانوا مشتبكين بقتال يائس منذ ثلاث ساعات •

وقد حمل بعض المؤرخين على جيوستنياني لانه جنوي ولان للجنويين شهرة خاصة في الخيانة والنكوص • ودافع عنه آخرون قائلين انه كان يعرف خطورة جرحه • وعاد جيوستنياني ثانية الى داخل المدينة المسورة حيث عاش قريبا من الخطر ومكرسا جهوده لها خلال الاشهر الاربعة الماضية ،

وسار ببطء قاطعا أزقتها الضيقة متوجها نحو السلسلة حيث كانت سفينته ترسو قربها ، وتوجهت السفينة غربا نحو وطنه الذي لم تكتب له رؤيته، فقد مات على ظهر السفينة بعد ستة أيام • ولكن قائده لم يعرف ذلك قط •!
وكان الامر بالنسبة الى قسطنطين لا يعدو هروب أقرب رفاقه ومحاربيه اليه • وكان اخر ما رآه الامبراطور ظهر جيوستنياني العريض عندما غادره وهو يسير مطرق الرأس في المدينة التي كانت شبه خاوية • وتبع جيوستنياني الكثير من جنوده الجنويين فقد كان فتح باب ذلك السور اغراءً عظيما ، اذ أن سهولة الخلاص من الموت المحتم عن طريق دخوله كان أمرا تصعب على الكثير مقاومته • وقد سبب نكوص المحاربين الغربيين انهيار الدفاع ولا سيما في باب القديس رومانوس • وكان التفوق العددي بجانب الاتراك بنسبة مئة الى واحد ولم تتوقف مدافعهم عن القصف قط • وجاء الانكشارية موجة اثر موجة ، واستمر الهجوم على عنفه دون هوادة الى أن انهارت الاسوار العظيمة التي صمدت أمام أحداث ألف عام وأصبحت كوما من الانقاض•ولكن المعركة كانت لا تزال مستمرة وما زال كل جندي مسيحي باق على قيد الحياة يشهر سلاحه لايقاف العدو الزاحف • وفي هذا الموقف المتأزم علت صرخة من داخل المدينة : « لقد سقطت المدينة » وتوقف المحاربون الشجعان المدافعون عن باب القديس رومانوس وكأنهم استحالوا الى حجارة ، فقد كان بوسعهم أن يروا من خلال الاسوار المهدمة باب (كيركوبورتا) وفي أعلى برجه العلم التركي الاحمر يخفق من الريح • وتكرر الصراخ : « لقد ضاعت المدينة » وشقت أصداؤه الجو المتوتر في المدينة المقضي عليها • وأسرع الامبراطور على جواده الى (كيركوبورتا) حيث اكتشف أن الانباء لا صحة لها وان بعض الاتراك قد دخلوا بالفعل ولكن المدافعين أبادوهم • وقد كانت في الواقع مفرزة من الفدائيين أرسلت لتمزيق العلم اليوناني وراية البنادقة (القديس مارك) ورفع العلم التركي عوضها • ولم يمكن معرفة كيفية دخول هذه المفرزة في الفوضى التي كانت سائدة وبقي هذا الامر سؤال لم يجب عليه • الا أن المعركة الدامية القصيرة كانت قد انتهت عندما وصل الامبراطور الى الباب وانزل

العلم الاحمر خلال بضع دقائق • ولكن سخرية الامر أن الحامية التي قاتلت طوال هذه الفترة قتالا بطوليا انهارت فجأة وطغى عليها الذعر عند أول نظرة الى العلم الغريب والقى الجند أسلحتهم وهربوا نحو الاسوار وقد نضبت جرأتهم وأخذوا يجرون مع الاهالي في الشوارع • ولم يهرب الجميع فقد ثبتت قلة منهم • وعندما عاد الامبراطور الى جنده ترجل مسرعا من جواده وحمل ترسا ، فقد كان الآن هو القائد ، وقاتل اليونانيون على شكل دائرة ضيقة تحيط به وكان فرانزا ما يزال موجودا بالرغم من أن كبر سنه منعه من القتال •

وشعر السلطان محمد بتفكك العدو وبالفوضى التي تسود صفوفه ، فشدد الهجوم ، وكان يمكن تمييزه من جواده الابيض وعمامته الكبيرة وسيفه اللامع عند ركوبه خلف قطعاته •

وأخيرا نجح العدو في تسلق الاسوار التي أصبحت الآن كوما من الحجارة المفككة خالية ممن يدافع عنها وكان أول من اجتازها إنكشاري عملاق تسلق أسوار المدينة واسمه (حسن الالوباتلي نسبة الى قرية اولوبات) وكان خارقا في قوته وضخامته وقد اعتلى السور محتميا بترسه الذي كان يحمله قريبا من جسمه وأعقبه ثلاثون من رفاقه الانكشارية قتل منهم ثمانية عشر فورا ووصل حسن قمة السور ووقف حيث رآه الجميع ومن ثم أسقطه المدافعون وعندما أصيب بجراح قاتل وهو على ركبتيه ، ثم نهض ثانية وسقط مجددا تحت وابل من النبال والحجارة التي وجهت اليه • لقد كان أول من تسور المدينة وكانت جائزة السلطان وهي أحسن مقاطعاته ستكون من نصيبه ولكن شاء الله أن ينعم عليه بالشهادة ويحرمه من المكافأة •

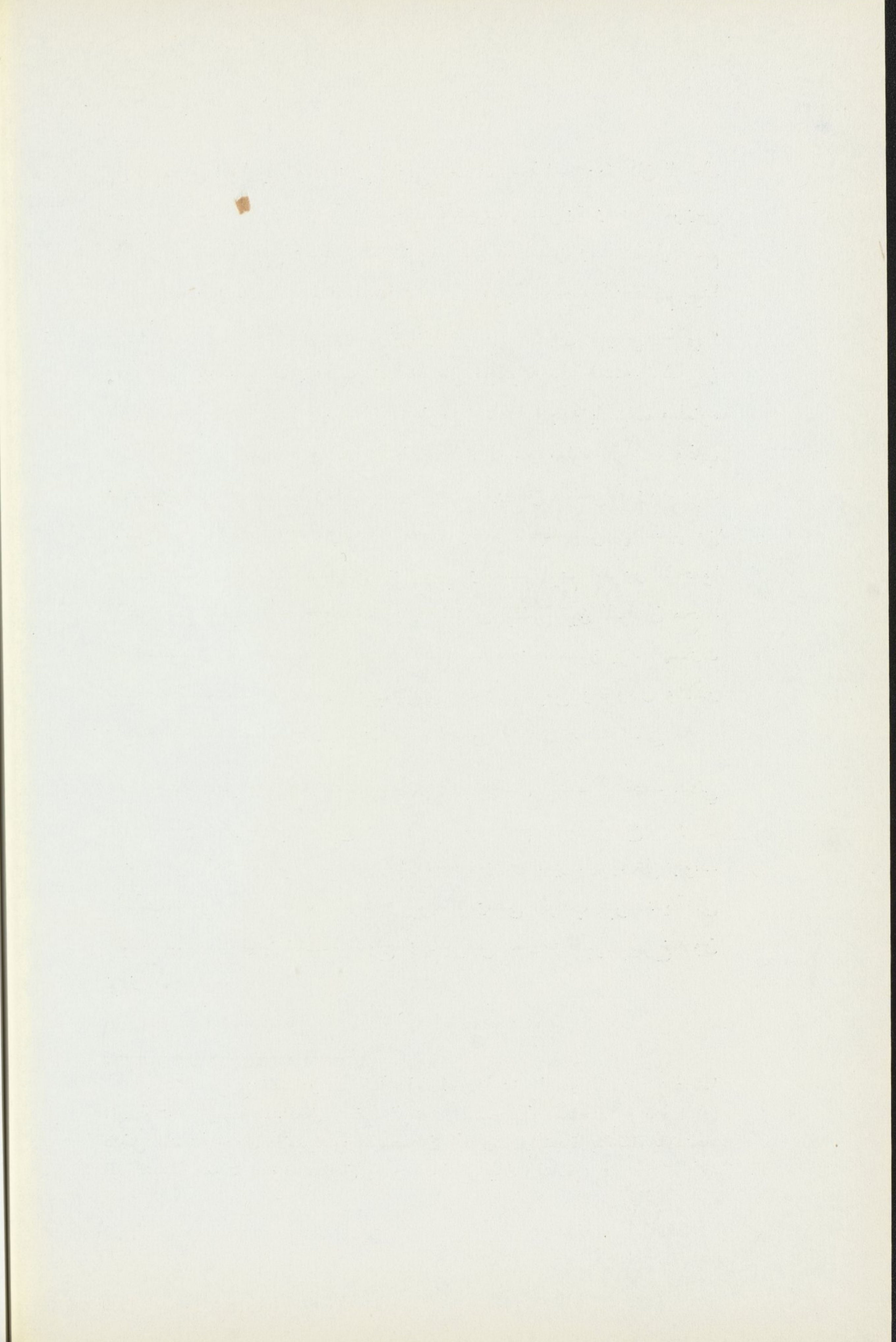
وقد أثبت حسن أن تسلق الاسوار ممكن ومستطاع ، وقد كان ذلك ما توخاه السلطان محمد ، فسرعان ما تدفق الاتراك بالمئات من فوق الاسوار والابراج المهشمة والساقطة معقبين الطريق الذي شقه حسن وجاءوا بأعداد لا قبل لليونانيين بالوقوف في وجهها وانحصر المدافعون في الفسحة الواقعة

بين السورين الخارجي والداخلي ، وفي تلك الفسحة المحدودة كان الرجال يتساقطون الواحد فوق الآخر والسيوف تضرب بضراوة وقعقعة التروس والدروع تعلو • وفي وسط ذلك الزحام كان قسطنطين وقد قتل معظم الرجال المحيطين به نتيجة هجوم العدو ، أو لان موجة الهجوم قد دفعتهم بعيدا عنه وكان آخر كلماته التي سمعها فرانزا هي : « هل من مسيحي يقتلني » ومع تلفظه بذلك ، حمل وسيفه في يده على مجموعة من خمسة انكشاريين يقال انه قتل ثلاثة منهم ويقال ان الآخرين ضربوا وجهه بالسيف وطعنوه طعنة اخرى في ظهره ، ولكن الحقيقة ما تزال غير معلومة(٣٥) • وغاب قسطنطين عن نظر فرانزا ودفن جسمه تحت وابل من القتلى • وبعد موت الامبراطور اختفت المقاومة وضاع النظام ، واندفع الجند التركي المظفر من ثغرات السور في باب القديس رومانوس وانضم اليهم اخرون اقتحموا الاسوار من ناحية المرفأ • وبعد شروق الشمس مباشرة تبين للسلطان محمد أنه قد توصل الى هدفه ، فبعد حصار استمر ثلاثة وخمسين يوما انهارت مقاومة القسطنطينية ، المعقل المهيب الذي تحدى الفرس والرومان والافار والبلغار وخلفاء العرب وفاز بشرف فتحها جيش السلطان محمد الثاني •

وعند ظهر يوم ٢٩ مايس عام ١٤٥٣م دخل السلطان محمد الثاني القسطنطينية وعرف في التأريخ منذ ذلك اليوم باسم محمد الفاتح • وكان دخوله على رأس موكب الفتح من باب أدرنة ، وكان يسير الهوينا على جواده الاشهب الذي كان يختال بنشاط وحيوية ، ومضى الموكب عبر المدينة الى كنيسة سانتا صوفيا وكانت الصنوج والاجراس تدق والطبول تقرع دون توقف •

---

(٣٥) تروي المصادر التركية هذه الحادثة على الوجه التالي : (عندما انهارت مقاومة المدافعين وألقى الجنود المسيحيون أسلحتهم وهربوا الى داخل المدينة حاول الامبراطور قسطنطين الهروب والنجاة بنفسه بالالتجاء الى كنيسة سانتا صوفيا فلحق به جنديان تركيان وقتلاه) •





٢٠

الفاتح والخائن والشهيد

لاقى آخر امبراطور روماني حتفه على أسوار القسطنطينية ، فعلى مقربة من باب القديس رومانوس مات قسطنطين باليولوغوس خلف قسطنطين الكبير ميتة الابطال • وبعد انتهاء المعركة عثر على زوج من الاحذية القرمزية موشاة بالنسور الذهبية الامبراطورية وقد استخرجت من تحت كوم من جثث القتلى التي لم يستطع أحد أن يجزم أيها كانت جثة الامبراطور ، وبناءً على أمر السلطان ، جلب الانكشارية احداها وكانت مشوهة بحيث يصعب على أقرب الناس الى الامبراطور تشخيصها ، وقطع رأس الجثة وعلقه على تمثال جستنيان

ليراه جميع السكان • وأغلق باب القديس رومانوس الى الابد • وخلافا للابواب الاخرى وباقي الاسوار تركت أنقاضه وأنقاض الاسوار الموجودة شماله دون ترميم • ولا يعرف ما اذا كان الفاتح عند مروره فوق هذه الاحجار المباركة قد أمر بتركها دون ترميم كما هي رمزا لانتصاره ، أم لكي لا يتذكر الخلف بطولة السلف من الشجعان الذين ضحوا بحياتهم دفاعا عن شرف مدينتهم •

ولم يدخل السلطان المدينة مع جنده • فقد تسلق الانكشارية الاسوار، وبعد خسائر كبيرة اقتحموها ثم التحقت بهم مجموعة أكبر من الاتراك جاءت من جهة المرفأ وخلف هذين الاندفاعين دخل كل الجيش ورفع الجند سيوفهم وعلا تكبيرهم • ولكن الفاتح بقي منفردا بارا بوعده لجنده : « ان كنوز المدينة ونفائسها وأهلها ملك لمن يستولي عليها » •

أما ماجرى لاهل المدينة فيما بعد ، فانه حين شوهد العلم التركي على باب (كيركوبورتا) الصغير ، في المناورة الخادعة التي انكشفت مؤخرا ، أسرع كل من كان بوسعه ذلك الى كنيسة سانتا صوفيا ، من الرجال والنساء • وقد انهارت الشجاعة التي بدت فيما سبق ونضب معينها ، وبخوف وتخاذل تكدسوا جميعا بزحمة كبيرة في الكنيسة وأغلقوا الابواب • وبينما كان امبراطورهم يقاتل في سبيلهم في فجر ذلك اليوم المرعب كانوا هم يزدحمون في ذلك الملجأ المظلم • وكانوا يصلون وينصتون ـ دون أن يدروا بأن مدينتهم قد سقطت ـ انتظارا لاصوات أجنحة الملائكة ، وكانوا يترقبون الملاك الذي قال عنه الرهبان انه سيتصدى للعدو المهاجم ويوقفه • وعندما سمعوا الطرق على أبواب الكنيسة كان بعضهم لا يزال يأمل ، ولكن الطرق لم يكن من ملاك جاء لينقذهم بل صوت العدو الذي أخذ يدمر الابواب بالفؤوس • وبعد ذلك هجم الاتراك على الجماهير المذهولة فعلا صراخهم بلسانهم الغريب وعلا بكاء النساء وأخذ الاتراك ينتقون ما يختارون من الاسرى وأرغموا اليونانيين على الخروج من الكنيسة في رتل منظم ، وفصلوا الاغنياء

عن الفقراء فذلك أضمن وسيلة للعثور على الكنوز والنفائس • وربط الجميع سوية دون تمييز بين الرؤساء الدينيين للكنيسة والنبلاء والعمال والارقاء ، وقادهم الفاتحون في صفوف طويلة الى خارج الكنيسة في شوارع مدينتهم • وحاول الكثيرون من سكان المدينة الذين لم يلق عليهم القبض في الكنيسة النجاة بالسفن ، فركضوا عبر الشوارع منحدرين من التل الى المرفأ حيث كانت سفن البنادقة والجنويين تستعد للاقلاع ، وكان الشاطىء مغطى بالناس الخائفين • وقفز بعضهم الى الماء وسبح من سفينة الى اخرى ولكن الملاحين رفضوا حملهم مفضلين مواطنيهم ، وحتى الجنويين من سكنة غلاطة كانوا يهربون من البلاد بأعداد كبيرة بالرغم من الوعود الكبيرة التي وعدهم بها السلطان •

وأصبحت الآن أعظم مدن العالم ، التي توسعت واغتنت وأوغلت في القدم في حوزة الاتراك العثمانيين تماما • وقد انتهى الآن زحفهم من سهوب آسية الذي استمر ٢٥٠ عاما • وامتدت أيدي المحاربين المسلمين ومرتزقة المسيحيين الذين يعملون لحسابهم وتابعي المعسكرات وجهلة الرعاة من الاناضول ، الى ما تبقى من ثروة القسطنطينية واستباحوها • وكان المظهر الخارجي للمدينة يسوده الفقر ولكنها كانت تملك ثروات مطمورة تحت الارض • فقد أخفى الكثير من نبلائها ملابسهم الثمينة من الحرير والفراء ومجوهراتهم وأدواتهم الفضية • ودفنوا السبائك الذهبية والعملات القديمة بعيدا عن الامبراطور واحتياجاته • وأخذ بعضهم الان يكشفها أملا في انقاذ حياته من الغزاة • وفي الصوامع والكنائس وجد السلابون نفائس كثيرة كاللآلي وأوعية الذهب والفضة والاواني الكنسية والمباخر والحلي المقدسة •

وكان ذلك اعادة لما قام به اللاتين في الحملة الصليبية الرابعة ، وقد فقد ١٢٠٫٠٠٠ مخطوط من المكتبات البيزنطية • ولم تكن هذه تستحق من

الاتراك بذل العناء فان كل عشرة مجلدات منها لا تساوي دوكانا واحدا(٣٦)
وعلى الرغم من أنه قد يكون بينها مخطوط لارسطوطاليس أو هوميروس .
ولكن لحسن الحظ تم انقاذ بعضها التي لا تقدر بثمن بواسطة البنادقة
والجنويين الذين كانوا مستعدين للمتاجرة حتى تحت هدير المدافع اذا كان
هناك مجال لصفقة رابحة . وبذا نقلت هذه الكتب الثمينة الى ايطالية . ومن
سخرية القدر أن تكون هذه الكتب المسروقة ، بما نشرته من معرفة لا تثمن ،
من الاحجار الاساسية التي بني عليها عصر النهضة .

وخلال سبع ساعات كان الالوف من الاتراك قد استباحوا المدينة ولم
تسلم امرأة أو عمل فني من أيديهم الخشنة ، لقد كان الغنائم والسكان
مكافآتهم الموعودة .

وعند الظهر دخل السلطان محمد الفاتح الى المدينة في موكب النصر
وأصبح في عداد التأريخ كل القتال والنهب والفواجع والتخريب الذي بدأ
قبل الفجر في يوم ٢٩ أيار الحاسم ذاك . وجاء الفاتح على جواده الاشهب
اللعوب من باب أدرنة الذي اصبح منذ ذلك اليوم باب الظفر ، وكان السلاطين
العائدون من الفتوح في القرون المقبلة يدخلون منه دوما الى القسطنطينية .
ورافقت الفاتح حاشيته الخاصة من الوزراء والباشوات و... الحرس الخاص
المنتخبين لضخامة أجسامهم وقوتهم وقد وصفهم أحدهم بأن : « كلا منهم
كان قويا كهرقل ووسيما كابولو وفي المعركة كان كل منهم يعادل عشرة من
البشر الاعتياديين » . وكان معظمهم يرى القسطنطينية من داخل أسوارها
للمرة الاولى وكانوا يمتطون خيولهم بروعة الفرسان المطبوعين وتتحرك
رؤوسهم المعممة حركة بسيطة الى الجانبين للتطلع الذي لم يرغبوافي أن
تبدو عليه الدهشة . ولكن العجب كان يبدو في أعينهم السود من روعة
القباب والقصور في المدينة العظيمة .

---

(٣٦) الدوكات : عملة كانت تستعمل في القسطنطينية والبندقية
وجنوة .

وفي ميدان المضمار ذي الشهرة العالمية توقف السلطان ، فقد أصبح الآن خرائب كما دمره اللاتين عام ١٢٠٤ ولكن العمود القديم للثعابين الملتوية ما يزال في محله ، وبشعور طاغ وقف السلطان محمد الفاتح في ركابه ورفع دبوسه في يده وبضربة جبارة من ذراعه القوي حطم الفك الاسفل لاحد الثعابين الصخرية الكبيرة . وترجل في كنيسة سانتا صوفيا حيث كانت قد تمت تصفية معظم الجموع اليونانية واقتيدت الى الخارج ولم يكن في الكنيسة أحد سوى رجاله . وعندما دخل السلطان كان أحد الجنود الاتراك يحطم احدى الحواشي الرخامية بفأسه وصرخ الفاتح يمنعه : « ان الغنائم والناس لكم ولكن المدينة والابنية لي » . ودخل الباشوات والوزراء والحرس خلف سيدهم واعتلى المؤذن برج أعظم الكنائس المسيحية ومن ذلك المرتفع علا صوته الجهوري الرنان داعيا أمة محمد الى صلاة الفتح . وأصبحت كنيسة سانتا صوفيا منذ تلك اللحظة مسجدا جامعا للمسلمين . وبعد الصلاة في سانتا صوفيا ذهب السلطان الى قصر بلاشيرناي ، وابتسم عند رؤية الغرف الخاوية فردد بيتا فارسيا :

لقد نسج العنكبوت بيته في القصر الامبراطوري
وأطلق البوم انشودته المشؤومة في أبراج افراسياب .

لقد كان الفاتح رجلا مثقفا بوسعه الاقتباس من الادب الفارسي الا أن الدماء الآسيوية البدائية كانت ما تزال تجري في عروقه .

واستدعى اليه الآن الدوق الاعظم نوتاروس ، فبعد التأكد رسميا من موت الامبراطور أصبح الدوق الاعظم الرجل الاول في ملته . وجاء نوتاروس الى حضرة الفاتح يحمل هدايا من كنوزه الخاصة ، حيث لم يقم باخفائها عبثا ، وجاء خلفه خدمه يحملون أوان فضية وقبعة مطرزة بالمجوهرات وأقداحا نفيسة . وانحنى الدوق انحناءً تاما أمام الملك الجديد الذي جلس متربعا على وسادة في قصر بلاشيرناي الخاوي . ولم يحرك الفاتح رأسه المنتصب بعظمة . وقال الدوق أني أقدم هذه لكم يا سيدي . وأشار الى الهدايا

التي يحملها خدمه . وختم كلامه قائلا : « وانني رهن أمركم وخادم مخلص لجلالتكم » .

ونظر الفاتح الذي كان قد أمر في صبيحة ذلك اليوم برفع رأس قسطنطين الملوث بالدماء عاليا ، الى هذا النبيل الانيق الملتحي والذي انحنى بخضوع أمامه . ولما كان الفاتح ملما بعدة لغات قال لنوتاروس باليونانية : « لماذا لم تصرف كنوزك هذه في الدفاع عن سيدك وبلادك » .

وأجاب نوتاروس بذلة : « ان الله قد شاء أن تكون من نصيبك ، وان أحتفظ بها لكم يا سيدي » . وتكلم الفاتح ثانية : « اذا شاء الله أن تحتفظ بها لي ، فلماذا سمحت أن تحول هذه المعركة الطويلة الدامية بينها وبيني ؟ » وقال الدوق الاعظم أنه كان يخشى الوثوق برسول فقد شاهد بعينه خيانة أحد كبار وزراء السلطان وأعظمهم قدرا . وكان خليل باشا يقف خلف السلطان متصلبا وكأنه تمثال يتجاهل تماما كل ما يدور . وانتهت المواجهة وهي تنذر بالشر ، وعندما غادر الدوق الاعظم السلطان كانت الثقة قد فارقته. ولم يتوصل الى شيء سوى عودة خدمه معه وقد أفرغوا ما كانوا يحملونه .

ولكن أعقب المقابلة ما كان يبدو عفوا عاما ، وكان الفاتح يتجول في المدينة بعطف وجواده الاشهب يختال تحته وكانت المجوهرات تسطع على قفطانه وردائه الخارجي ، وعمامته الناصعة البياض تسطع في شمس شهر حزيران (يونيه) . وعزى نساء الرجال الذين أصبحوا اسراه ، وطلب الى كبار وزرائه وقواده أن يعدوا له قائمة بنبلاء اليونانيين . وقال خليل باشا بعد أن صمت طويلا : « ان معظمهم قتلوا وهم يدافعون عن جثة امبراطورهم » وأجابه السلطان ببرود : « انني أسأل عن اليونانيين الاغنياء الذين ما زالوا على قيد الحياة » .

وبسرعة أخبر هؤلاء المواطنون الاثرياء الوزراء والقادة باسمائهم وأسماء أسرهم وكانت هناك تسع أسر وقد تنافست جميعها في تقديم الهدايا

ولا شك انها أخفت لنفسها ثروة لا يستهان بها أيضا • وهؤلاء هم ما يسمون في عصرنا هذا (عملاء الاجنبي) •

وكان الفاتح يبيت أمرا وخاتمة مثيرة لا يعلمها سواه ، فقد كان شابا تربى على الرغم من خطورة مركزه تربية خشنة عنيفة وكان في الوقت نفسه متعلما ونتج عن هذا المزيج أمر كبير الخطورة • ولذا كانت صرامته أكبر أثرا ، وذلك لمعرفته باسلوب تفكير الرجال وعملهم ونزواتهم • وكان يستطيع تمييز الضعة في الرجل الذي ينحني بذلة أمام حاكم قوي جديد •

وشاع في المدينة أن السلطان يتهيأ للسفر الى مقره في أدرنة بعد أن أكمل اجراءاته التمهيدية في القسطنطينية • وأمر بعقد اجتماع عام في المضمار في وقت كان يعتبر غداة سفره ، وكان اليونانيون الذين شملتهم القائمة التي طلبها بين المدعوين قد جاءوا يعلوهم البشر خافضي رؤوسهم يحملون الهدايا تعقبهم أسرهم •

وعندما أصطفوا أمامه ، سألهم السلطان فيما اذا كانوا راغبين في الخضوع لحكمه فصاحوا جميعا مبدين موافقتهم ، وسألهم عمّا اذا كانوا مستعدين للتأثير في باقي اليونانيين لجعلهم يحذون حذوهم بالطاعة فوعدوه جميعا بذلك •

ولكنه تساءل : « ولكن أين هؤلاء اليونانيين » • وأدار رأسه ناظرا الى رأس الامبراطور قسطنطين المحشي الذي كان ما يزال معلقا فوق تمثال جستنيان • وسرت موجة باردة في المجتمعين • وعلا صوت الفاتح بلهجة آمرة « ابركوا ولتكن وجوهكم ناظرة الى الارض » ولما امتثلوا للامر قام جلاد السلطان بقطع رؤوسهم الواحد اثر الاخر • وكان اخر من حضر أمامه الدوق الاعظم نوتاروس الذي سار بثقة مع ولديه ولكنه حين أبصر دائرة الرؤوس المدماة المحيطة بالسلطان عرف مصيره • وانتصب واقفا بطول قامته ، وحاول التصرف بشكل يمحو ماضيه وقال : « انني أرجو فقط أن أرى ضرب عنقي ولديّ لكي أطمئن الى المصير الذي انتهيا اليه » وبدون اكتراث أمر الفاتح

بضرب عنقي الصبيين ، وعندما سقطا صريعين أمر السلطان بضرب عنق نوتاروس •

وكان الفاتح بما عرف عنه من دهاء وتكتم مستعدا دوما لنقض أي معاهدة اذا كان في ذلك مصلحة له ، ولكنه كان يعرف الخائن فور رؤيته ، وقد عرف دون شك أن رهط نوتاروس رجال لا يمكنه الاطمئنان اليهم ولذا قرر قطع دابرهم •

وعبر القرون رويت روايات عديدة عن تسلسل الحوادث التي وقعت في ذلك اليوم الفظيع الذي سقطت فيه المدينة وعن الدور الحقيقي الذي لعبه نوتاروس في المأساة • واذا كانت هناك خيانة فانها كانت تنحصر في دخول الاتراك الى المدينة من ناحية المرفأ وأسلوب وصول المفرزة التركية الى باب (كيركوبورتا) •

لقد كان باب (كيركوبورتا) قرب القصر وعلى مقربة من المرفأ ولم يستعمل منذ مدة طويلة والحقيقة انه كان مغلقا منذ عهد الصليبيين بسبب نبوة تقول ان الامبراطور فردريك سيدخل المدينة عن طريقه • وفي الايام الاخيرة من الحصار النهائي فتح للسماح بخروج عدد أكبر من المدافعين ليلا لترميم الاسوار وكان هذا الباب يقع في القاطع الذي يقوده نوتاروس • وفي ذروة المعركة عندما كان اليونانيون في قاطع رومانوس يتحملون أشد قصف ، وبعد جرح جيوستنياني مباشرة ، تسرّبت مفرزة تركية مؤلفة من خمسين تركيا من باب (كيركوبورتا) غير المدافع عنه ، وقد كان توقيت هذه الحركة يدل على تسرب معلومات من الداخل الى العدو • فمن الذي أعطاها ؟ ومن الذي بدأ صرخة (لقد سقطت المدينة) ؟ اننا لن نعرف ذلك قط •

وكذلك لا يوجد جواب يفسر دخول قوة كبيرة من الاتراك بعد ذلك بفترة قصيرة من (باب فنار) و (فنار) هي المنطقة التي تقع على جانب المرفأ من المدينة ، وقد كانت أيضا بعهدة الدوق الاعظم نوتاروس • وعندما تبع اثنا عشر انكشاريا العملاق حسن الالوباتلي ونجحوا في تسلق الاسوار البرية

وخرقوا دفاع الامبراطور عن المدينة ، وجد هؤلاء طائفة من الاتراك تتقدم نحوهم دون ما يعيقها عائق وكانت قادمة عن طريق باب فنار • وفي جو المعركة المربك حين يلتحم المئات في اشتباك قريب وجها لوجه ، يعلو صراخ الجرحى ومن بين هروب الخائفين الفزعين والجثث التي تداس تحت الاقدام يصعب جدا على المؤرخ التوصل الى أمور لا يشك في صحتها ، ولن يستطيع حتى المكلف بالبحث عن الحقائق والموجود في خضم الاحداث تقدير أي حكم صحيح • اذ أن العواطف والبحث والتحيز تموه الحقائق المنطقية ، ولكن على الرغم من ذلك يمكن القول ان أصبع الاتهام تشير الى نوتاروس •

وفي وقت أقصر مما يبدو ممكنا نقل ٦٠٠٠٠ يوناني من المدينة الى المعسكر التركي والى السفن الراسية في الميناء ، وبعد ذلك تم استبدالهم أو بيعهم رقيقا ، ومن ثم بعثروا في الاقاليم القصوى من الامبراطورية العثمانية •

ومن بين الذين أرسلوا للخدمة والرق فرانزا صديق الامبراطور حيث فصل عن زوجته وأطفاله ، وبعد أن عمل بأمرة سيد تركي خمسة عشر شهرا تمكن فرانزا بفضل ذكائه اللامع من استعادة حريته • وبعد ذلك سافر الى أدرنة حيث سمع أن زوجته أسيرة هناك • وفي غضون سنة تمكن من دفع الفدية اللازمة للاسرة التركية التي كانت تعمل عندها لاطلاق سراحها • أما طفلاه ، فقد ماتت ابنته الجميلة (تامار) في حرم السلطان وعمرها أربعة عشر عاما ، وأما ولده الذي يكبرها بسنة واحدة فقد انتحر ولم يرتض أن يكون بضاعة تباع في الاسواق • ونحن مدينون لفرانزا نفسه بقضاء بقية حياته يكتب تأريخ هذه الفترة ، بما توفر لدينا من معلومات شخصية مفصلة •

أما خليل باشا الذي كان يخدم السلطان والامبراطور معا فقد أعتقل وعذب عذابا قاسيا الى أن مات • وأصبحت القسطنطينية مدينة تركية وما تزال الى يومنا هذا • وأضيف الى الراية التركية الحمراء نجمة وهلال وهما رمز بيزنطية • وما تزال سانتا صوفيا قائمة ولكن فسيفساء جوستنيان الذهبية قد

طليت باللون الابيض وأضيفت أربع منائر اليها .

واستدعى الفاتح لمواجهته الراهب الارثوذكسي غناديوس الذي كان أصلب الناس في مقاومة الاتحاد الكنائسي بين الشرق والغرب وعينه بطريقا للكنيسة المسيحية الارثوذكسية ومنحه القفطان والعصا ، ووعده بالحماية والعطف وأسكنه قصرا في منطقة فنار في المدينة وما زال خلفه مقيما فيه يمارس عمله ، وبهذه الصورة أكمل توسيع شقة الخلاف بين الشرق والغرب .

أما الكردينال ايزيدور فقد القي القبض عليه وهو متنكر بزي جندي وبيع رقيقا . وشجع الفاتح هجرة الناس الى المدينة لاعادة اعمارها لانها كادت تكون خاوية ، كما دعا اليونانيين الهاربين الى العودة وأعطاهم مساكن في منطقة فنار المحيطة بقصر البطريق ولم يسمح لهم باشغال المناصب الحكومية ، ولكنهم أصبحوا عمالا وتجارا وصيارفة وعاشوا بسلام . ونقلت قرى كاملة من أراضى أجنبية لتستقر في المدينة مع سكانها من الصرب والبلغار والارمن ، ولذا فالقسطنطينية اليوم مدينة قوميات مختلفة ووجوه متباينة وألسن متعددة .

واستمرت الادارة العثمانية التي نظمها السلطان محمد الفاتح حتى القرن التاسع عشر ، وأصبحت القسطنطينية مدينة عظيمة مجددا ولكنها كانت في هذه المرة مسلمة لا مسيحية ، وعاصمة للشرق . وأصبح اسمها مدينة الاسلام (اسلام بول) أو استانبول .

وحين ينظر المؤرخ الحديث الى الماضي يستطيع تمييز الكثير مما لم يميزه الناس في حينه عندما كان يعميهم الحقد والخوف .

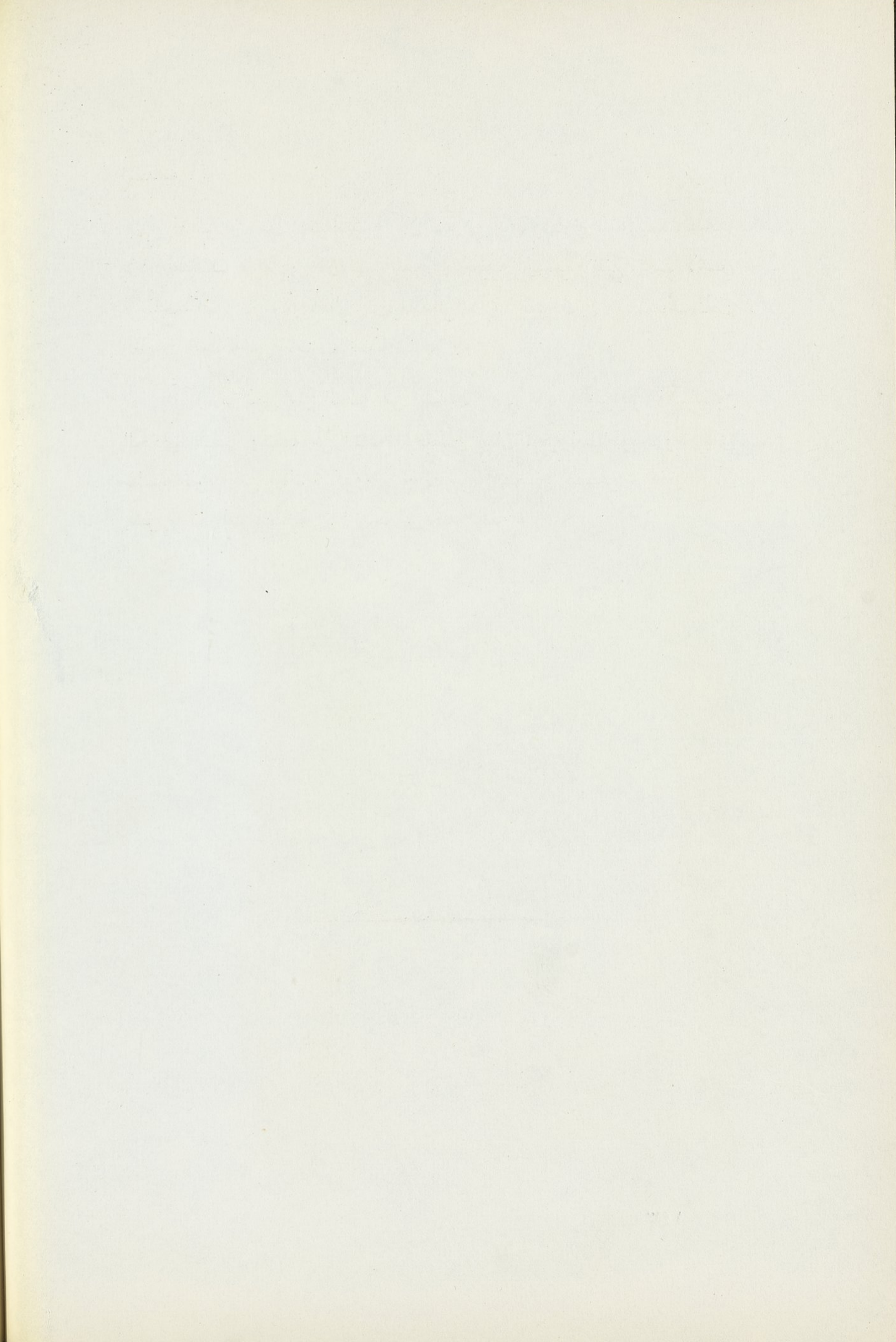
فيقول المؤرخ المعاصر مثلا : كم كانت الامور ستختلف لو أن اللاتين لم يدمروا القسطنطينية في عام ١٢٠٤ ، أو لو أن المسيحيين وحدوا صفوفهم في سنة ١٣٩٦ عندما هزم تيمور لنك الاتراك !!

أو لو أرسلت كل من جنوة والبندقية جميع قطع اسطوليهما لمساعدة الامبراطور عوض خمس سفن فقط ، ألم يكن ممكنا حينذاك أن تنجو

المدينة ؟

أو لو أن أهل القسطنطينية كان لهم في أيامهم الاخيرة العزيمة الصادقة لانقاذ مدينتهم ، أو لو كان لهم الشجاعة الكافية المستميتة التي كانت لاهل قرطاجنة الغابرين ، أو أهالي بيت المقدس • أو أهالي لندن وصمودهم تحت الغارات الجوية في الحرب العالمية الثانية ••

وكل ما تبقى من القصة هو الشرف الذي ناله الامبراطور قسطنطين الحادي عشر وقبضة من أتباعه المخلصين ، ان آخر امبراطور روماني في سلسلة طويلة من أباطرة الرومان بدأت من أغسطس قيصر ، يحق له أن يعتبر مدينة القسطنطينية أثرا تذكاريا يخلد اسمه •



هدية من

مؤسسة

كالوست جولبنكيان

في لشبونة

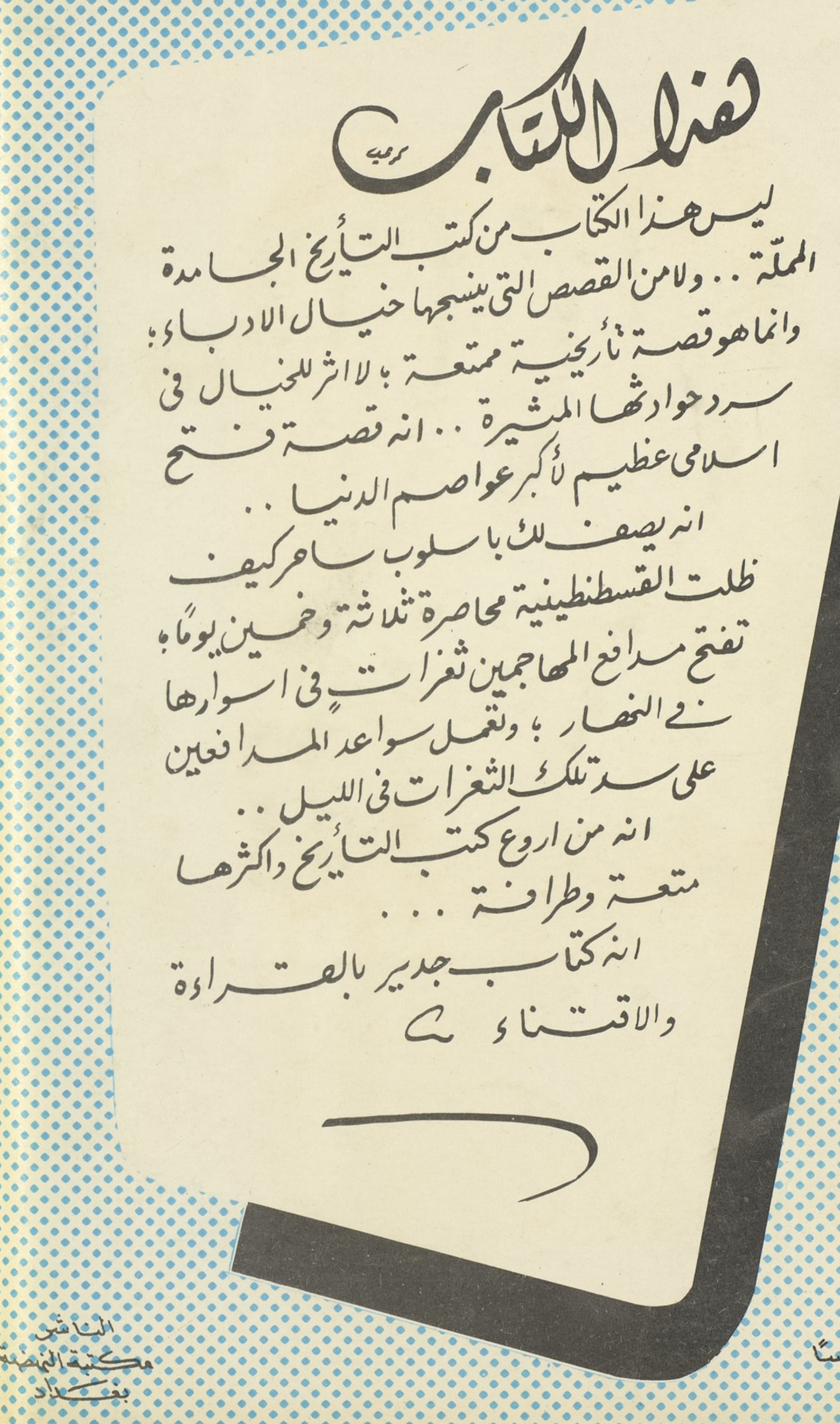
إلى

وزارة

التربية والارشاد

بغداد

١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م



الثمن ٢٥٠ فلساً